اعداد واخراج
موقع مؤسسة الإمام الكاظم عليه السلام ـ المكتبة العامة ـ مكتبة التاريخ والسيرة الإسلامية
http://www.alkadhum.org

أسم الكتاب
الإمام علي الرضا
عرض وتحليل
المؤلف
الشيخ عقيف النابلسي

الإمام الرضا (عليه السلام) عرض وتحليل

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطاهرين.

وبعد فإن أهل البيت (صلوات الله وسلامه) عليهم مفتاح لكل خير، ومنهل لكل علم، ومربع لكل خلق فاضل، ومرتع لكل ضال جائع، فلا ينفك ذكرهم يملأ الآفاق وسيرتهم تشرف الأخلاق، وروائع أفعالهم قلائد في الأعناق، فما من إنسان عالم، سما به علمه، إلاّ وهم أساتذته أيّاً كان وفي أي فرع تكلم.

وقد جهل العالم قدرهم مدّة من الزمن يوم كان الضلال مخيّماً على ربوعهم، والجهل منتشراً بين أجوائهم وعندما أزيح هذا الحجاب عن أعين الناس واستبصروا بعد ضلال وجهالة عرفوا ما لأهل هذا البيت من قيمة علمية فريدة.

فكانوا عندما تسنح الفرص لنشر العلوم ينتهزونها ولا يدخرون وسعاً في تعليم الجاهل وتكريم العالم ونشر العلوم على أي صعيد كان ويكفي عندما سنحت الفرصة وثنيت الوسادة للإمام الصادق (عليه السلام) مدّة وجيزة من عمره الشريف.

ملأ الكون علوماً حتى لا ترى عالماً في شتى بقاع الدنيا إلاّ ويفتخر بالانتساب إلى مدرسته سواء أكان تلميذه مباشرة أو غير مباشرة.

وما انفك أهل البيت (عليهم السلام) أصحاب مدرسة مستقلة في ذاتها فريدة في أسلوبها عميقة في جوهرها وأصالتها فلم يخضعوا رغم شدّة الظروف وحراجتها يوماً إلى الظلمة أو يساورهم لحظة واحدة حتى قضوا ما بين قتيل وشهيد مشردين في كل بقاع الدنيا تتشرف بضم جسومهم، والناس بتقبيل ترابهم. وهكذا كانوا مصدر خير لكل أرض يحلّون بها أو مكان ينزلون به، وسيبقون إلى أن يأخذ الله الأرض ومن عليها قدوة الأنام وأعلام الإسلام إليهم يقصد القاصدون وعلى موائدهم الفكرية يجلس العلماء الجائعون.

وإمامنا الإمام الرضا (عليه السلام) الذي عاش مدرسة آبائه وأجداده بكل ظروفها وأساليبها لم يتجاوزها قيد أنملة بل كان مطبقاً لبنودها أميناً على أسرارها ناشراً لآرائها وأفكارها.

وكان في عصره أمثولة الحياة وأنشودة الزمن إليه يرجع العالم والمتعلم والسياسي والطبيب والمهندس وهلم جراً. حتى هز العباقرة بما أعطى من علوم وحكمة، وكأنه يفيض هذه العلوم إفاضة دون تكلف.
ولم يسأل عن مسألة فلسفية أو فكرية حديثة وقديمة إلاّ وحلها، ولم يناظر من قبل كبار المفكرين والفلاسفة إلاّ وغلبهم وكان أعلم منهم حتى في كتبهم. وكان موقفه من السلطة الغاشمة كموقف آبائه من الظلمة والغاصبين، لم يتهاون ولم يساوم وبقي يقاوم بكل ما أوتي من حول وقوة حتى غدر به فمات مسموماً غريباً مظلوماً، فذهب إلى ربّه نقي الثوب طاهر الذيل لم يغمز في سلوكه بغمزة واحدة طوال حياته.
وقد اعترف بزهده وورعه وعلمه وفهمه كل من عاشره وسمعه وقد تأسّى بسلوكه كل أبنائه في الموقف الصلب أمام تهديد الظالم ولو أدّى إلى سفك دمائهم ولم يتنازل عن ناموسه ومبدئه.

هذا الكتاب

وهذا الكتاب الذي أقدمه بين يدي القارئ نتيجة جهد ليس بالقليل استعرضت فيه حياة الإمام الرضا (عليه السلام) مع تحليل لبعض المواقف الرائدة والرائعة التي استوقفتني كثيراً وانبهرت عندما كنت أقرأ أخبارها وقد تضمنت نقاطاً عديدة وعالجتها معالجة قد تكون لأول مرة حسب إطلاعي.
فحين نقف عند الحادثة لا نقلبها كقصة تاريخية بحتة ليس لها ربط بالإطار العام والمضمون الفكري بل نقدم شرحاً مبسطاً يتلاءَم مع حجم الكتاب ليستفيد القارئ ولنلفت أنظار الناشئين إلى العطاء الفكري الكبير الذي قدمه أهل البيت (عليهم السلام) للمسلمين.
وكلّي أمل ورجاء أن يتقبل الله منّا هذا الجهد المتواضع ويدّخره لنا ليوم يفر المرء من أخيه وأمّه وأبيه ويشفع فينا إمامنا الإمام علي بن موسى الرضا وأهل البيت جميعاً.
وكلي أمل أن يكون هذا الكتاب طليعة ثمارنا وبداية تحوّل في فكرنا وسلوكنا والله أسأل أن يمنّ علينا بالصبر على الجهد والجد على العمل وأن يوفقنا لنشر تعاليم الفكر الرائد والمدرسة المربية في سلوك أهل البيت وعلومهم.

مولد النور

لقدا اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بصيانة العلاقة بين الرجل والمرأة وحرص كل الحرص أن تكون هذه العلاقة على أسس متينة من الطهارة والعفة والشرف وركّز كل التركيز على تهيئة المرأة الصالحة لأنّه يرى أنّ المرأة السيئة والماجنة لا تنشئ جيلاً هادفاً ورائداً وبما أنّ الإسلام ذو نظرة مستقبلية هادفة شجب كل أعمال الرذيلة والفحشاء ورمى من وراء ذلك إلى وضع النظريات التربوية الصالحة في خلق جيل إسلامي واعٍ.
والشيء الطبيعي أنّ المرأة الصالحة بمثابة الأرض الطيبة إذا زرعت بها زرعاً صافياً من الزؤان، وحرثتها الحراثة الصحيحة، وتهيأ لها الجو والمناخ الطبيعي، سوف يحصد منها الإنسان أفضل، محصول، وكذلك المرأة الصالحة إذا كان زوجها صالحاً وكانت العلاقة بينهما قائمةً على أساس من ذكر الله حتى في ساعة الخلوة بينهما سوف تكون نتيجة اللقاح الجنسي وجود الثمرات الإنسانية الرائعة.
ولم يكتف الإسلام بإيجاد هذه النظريات في الذهن والتصوّر بل خرج بل إلى عالم الحقيقة من خلال سلوك القادة المبدئيين من الأئمة من أهل بيت العصمة والطهارة من علي (عليه السلام) حتى آخر الأئمة، فهم نهجوا هذا النهج من أجل خلق جيل إسلامي طاهر بعيد عن كل معاني الفحش والرذيلة. وقد كانت (حميدة البربرية) زوجة

الإمام الصادق (عليه السلام) منعوتة من قبله (عليه السلام) بأنّها عالمة غير معلّمة وهي أم أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) هذه المرأة الفاضلة المهذبة كانت قد اشترت جارية مولدة من أشراف العجم واسمها (تكتم) (1) وكانت من أفضل النساء في عقلها ودينها وإعظامها لمولاتها (حميدة) حتى إنّها ما جلست بين يديها منذ ملكتها إخلالاً لها ويروي الشيخ المفيد قصة لطيفة في شأنها والرواية عن هشام بن أحمد قال:

قال لي أبو الحسن الأول أي الكاظم (عليه السلام): هل علمت أحداً من أهل المغرب قدم؟ قلت: لا، قال: بلى، قدم رجل من أهل المغرب المدينة. فانطلق بنا فركب وركبت معه حتى انتهينا إلى الرجل، فإذا رجل من أهل المغرب معه رقيق، فقلت له: أعرض علينا، فعرض علينا سبع جوار كل ذلك يقول أبو الحسن: لا حاجة لي فيها، ثم قال: أعرض علينا، فقال: ما عندي إلاّ جارية مريضة، فقال: ما عليك أن تعرضها! فأبى عليه وانصرف.

ثم أرسلني من الغد فقال لي: قل كم غايتك فيها؟ فإذا قال لك كذا وكذا، فقل له: قد أخذتها. فأتيته فقال: ما كنت أريد أن أنقصها من كذا وكذا! فقلت: قد أخذتها، قال: هي لك، ولكن أخبرني من الرجل الذي كان معك بالأمس؟ قلت: رجل من بني هاشم قال: من أي بني هاشم؟ قلت: ما عندي أكثر من هذا. فقال: أخبرك إنّي لما اشتريتها من أقصى المغرب فلقيتني امرأة من أهل الكتاب، فقالت: ما هذه الوصيفه معك؟ قلت: اشتريتها لنفسي فقالت: ما ينبغي أن تكون هذه عند مثلك، إنّ هذه الجارية ينبغي أن تكون عند خير أهل الأرض فلا تلبث عنده إلاّ قليلاً حتى تلد غلاماً، لم يولد بشرق الأرض، ولا غربها مثله، قال: فأتيته فلم تلبث عنده إلاّ قليلاً حتى ولدت الرضا (عليه السلام) (2).

فإذا أخذنا هذه الحقائق التي أجمع المؤلفون على صحتها وهي أنّ هذه الجارية من أفضل النساء عقلاً وأدباً وتمسكاً بتعاليم الدين مع اقتران الإمام الزاهد العابد الراكع الساجد الذي لم يعرف التاريخ أكثر منه زهداً وورعاً في الحياة صاحب هذه النفس الطاهرة التي لم تتلوث بمعصية من معاصي الله حتى في عالم التصوّر والتفكّر إذا اقترنت بهذه المرأة المصفاة فماذا سيحدث؟

وطبيعي سوف تنجب هذه الفاضلة كما قالت المرأة الكتابية خيرة أهل الأرض علماً وورعاً وزهداً وفهماً وشرفاً، ولقد كان علي الرضا (عليه السلام) حائزاً على كل شرف وفضيلة، وبعيداً من كل سفه ورذيلة سما به الكمال والجلال، وعلت به المفاخر والمناقب، وتشرّفت باسمه الأعواد والمنابر، فهو الشريف ابن الشريف إلى نهاية الشرف وذروته، وهو رأس الفضل وسنامه وهو عنوان الأدب وقمّته، وهو تاج الفخار وعمّته، من لا يضاهيه في حياته بعد أبيه إنسان، منه الفصاحة تفتحت أكمامها وتفرعت أقسامها فهو الشجرة الطاهرة الزاكية والثمرة الناضجة الراقية وهو أنشودة الحياة في هذا الوجود وأفضل هذا العالم الموجود، ولا غرو فهو ابن الأئمة الميامين الذين طابت أصولهم وعلت فروعهم، حتى أحلوا المساحة الواسعة من ساحة الفخار والهضبة العالية من مكان المجد فأورقت في ساحة العز أشجارهم وتدفقت فيها أنهارهم فكانوا مجمعاً لكل كمال ومكاناً لكل وقار وجلال.

موئل المجد

لقد اهتم علماء التربية بتهيئة الأجواء المناسبة والملائمة لنمو الشخصية الإنسانية نموّاً طبيعياً كما اهتمّ علماء الطب كذلك لنموّ الإنسان في جسده نموّاً طبيعياً.

ولقد فرق العلماء بين شخصيتين إحداهما تربية امرأة فاضلة والأخرى تربية امرأة سيئة. وبين شخصين أحدهما يتوفّر له الغذاء المادي الكامل والآخر الذي لا يتوفّر له إلاّ البؤس والشقاء.

فقالوا: أمّا الأولان فسيكونان كاملين من جميع الجوانب أي من الناحية النفسية والجسدية والخلقية وما إلى ذلك.

وأمّا الآخران فسيكونان ناقصين مشوهين خلقياً وجسدياً وبالتالي ينشأ المجتمع الهزيل الضعيف لأنّه يتكون من هذه الأفراد المشوهة الهزيلة ولهذا تحاول هذه الفئة الإنسانية المصلحة أن تحدّ من جشع المحتكرين ليؤمنوا لأصحاب الدخل المحدود وضعاً معيشياً مقبولاً ليعيش فيه أولاده عيشة غذائية ليس فيها نقص للمواد الضرورية التي يتوقف عليها نظام الحياة.

كما أنّهم يحاولون بذلك كل ما يمكنهم الخلق جيل نسوي رفيع المستوى في الخُلق والالتزام والطهارة لتنشأ الأجيال في ظل هذه النماذج الخيرة وهي تحمل سمة أخلاقية رفيع المستوى، وأهل البيت (عليهم السلام) أول من سنّ للناس هذه القاعدة التربوية المتكاملة في عالمي الجسد والروح فمن ناحية نزعوا إلى وضع خطة تربوية ناجحة، ومن ناحية أخرى وقفوا المواقف الصارمة من الظلمة المستغلين أقوات الشعوب الضعيفة بينما هم يتجشأون شبعاً وكظة وبطنة نرى بالجانب الآخر من الوجود الإنساني جماعة يتضورون جوعاً وسغباً وعطشاً وإذا قرأ الإنسان تعاليم أهل البيت في هذين الميدانين يأخذه العجب والانبهار من كثرة ما يجد من تعاليم قيمة في هذا الجانب وإذا كانوا قد اهتموا بالناس إلى هذه الدرجة فهل يتركون أولادهم ولا يقيّمون لهم المنهج الصحيح.

الشيء الثابت عن الطاهرين المعصومين أنهم قبل أن يعظوا الناس بشيء يعملون به وبالأخص وهم قدوة الأنام ومعلمو البشرية.

إذاً فمن يكون والده وأستاذه ومربّيه (موسى بن جعفر) المعروف بطهارة ذاته وكريم صفاته وأنّه يظلله جوّه البيتي المضمّخ بعبير الأوراد وترنّمات الدعاء وتسبيحات الصدّيقات وقراءة القرآن هذا الجو السحري الحالم والندي الكريم سوف يخلق في الإنسان نفسية جديدة وروحية عالية وأخلاقية مثلى لو كان بعيداً عن سلسلة التراث الديني الرفيع والأخلاقي البديع فكيف بمن تناقلته الأصلاب الطاهرة، والأرحام المطهّرة، ولم يتلوّث وهو في حجب الأستار بمعصية أفلا يكون بعد هذه الأجواء الطاهرة فريد عصره، ووحيد دهره، وأمثولة الفخار، وأغنية الليل والنهار، وكذلك كان علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام).

مدرسة العصمة

كل ظاهرة اجتماعية أو طبيعية يجد الإنسان لها تأويلاً غالباً ما يرتاح إليه، والناس قد ألفت هذه الظواهر وألفت تفسيرها، وربما تستغرب عندما تسمع بالظاهرة العلمية الرائدة والفريدة عند أهل البيت ثم لا تجد لها تعليلاً ملائماً في الخارج. ونحن بنظرنا نقول: إنّ عدم الاقتناع بمثل هذه الظواهر الفريدة يعود إلى بعد الإنسان عن الخط السماوي الأصيل.

فإذا طرحنا هذه المسألة وقلنا لهؤلاء إنّ أي عالم من العلماء الماضين الذين أصبحوا مضرب الأمثلة في التبحر نجد في ترجمة حياته أنّه تتلمذ في النحو على فلان وفي الأدب على فلان وفى الفقه على فلان وهكذا ثم يصبح بعد ذلك أستاذاً فيموّل المشاريع العلمية بواسع ثروته ويرفدها من بحر عطائه. غير أنّ هذه الظاهرة لا تنسجم مع حياة الأئمة (عليهم السلام) حيث لم يعلم عن أحد منهم أنّه تأدّب على يد مؤدّب واع قدير أو أنّه دخل مدرسة

ابتدائية ثم تطوّرت به إلى مراحلها العليا، ومع هذا فلم يوجد في العالم الإسلامي والإنساني أعلم من هؤلاء، لا في الفقه الإسلامي فحسب، بل في كل العلوم الكونية.

ولا تفسير لهذه الظاهرة الفريدة إلاّ أنّهم نماذج بشرية راقية اختصّهم الله سبحانه وتعالى بواسع علمه، وكانوا على جانب عظيم من الصفاء والطهارة، فاستوعبوا جميع العلوم الكونية في مدّة وجيزة من الزمن، وعلى هذا يحمل قول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (علّمني رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألف باب، من كل باب ينفتح ألف باب).

وقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) رواية تفيد أنّ هؤلاء النماذج أعلم الناس صغاراً وأحلمهم كباراً، لا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم، وإنّهم أطايب عترتي.. الخ. وإلاّ كيف يمكن تفسير إمامة الإمام محمد الجواد (عليه السلام) وهو ابن تسع سنين تقريباً! وقد أفحم أكبر قاض في الدولة العباسية وبحضور جميع القواد من بني هاشم وغيرهم!! من هذا المنطلق نتحدث عن علم الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) لقد زقّ العلم زقاً من نبع أبيه الفياض، واستطاع وهو في صغره أن يتقن ويحظ كل العلوم الكونية والاجتماعية والإسلامية حتى إذا أصبح في ريعان شبابه الأستاذ الأكبر والمعلم الأول والأوحد قعد وفتح بيته للناس يعلمهم أحكام دينهم ويجيب على مسائلهم.

وقد روي عن الإمام موسى بن جعفر أنّه قال لبنيه:

(هذا أخوكم علي بن موسى عالم آل محمد فاسألوه عن أديانكم وأحفظوا ما يقول لكم فإني سمعت أبي جعفر بن محمد غير مرة يقول: إنّ عالم آل محمد لفي صلبك وليتني أدركته فإنّه سمي أمير المؤمنين علي).

وروي عن إبراهيم بن العباس الصولي أنّه قال: ما رأيت الرضا سئل عن شيء إلاّ علمه، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيب عنه، وكان جوابه كله وتمثله انتزاعات من القرآن المجيد.

وعن رجاء بن أبى الضحاك وكان قد بعثه المأمون لإشخاص الرضا قال: ما رأيت رجلاً كان أتقى لله منه ولا أكثر ذكراً له في جميع أوقاته منه ولا أشدّ خوفاً لله عزّ وجل وكان لا ينزل بلداً إلاّ وقصده الناس يستفتونه في معالم دينهم فيجيبهم ويحدثهم الكثير عن أبيه عن آبائه عن علي (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلما وردت على المأمون سألني عن حاله في طريقه فأخبرته بما شاهدت منه في ليله ونهاره وظعنه وإقامته.

فقال: بلى يا بن أبى الضحاك، هذا خير أهل الأرض وأعلمهم وأعبدهم (3).

وعن سنن ابن ماجة كما في (خلاصة تهذيب الكمال): كان سيد بني هاشم وكان المأمون يعظمه ويجلّه، وعهد له بالخلافة، وأخذ له العهد، ويقول المأمون في جوابه لبني هاشم: وأما ما ذكرتم من استبصار المأمون في البيعة لأبي الحسن الرضا، فما بايع له المأمون إلاّ مستبصراً في أمره، عالماً بأنّه لم يبق أحد على ظهرها أبين فضلاً، ولا أظهر عفةً، ولا أورع، ولا أزهد زهداً في الدنيا، ولا أطلق نفساً، ولا أرضى في الخاصة والعامة، ولا أشدّ في ذات الله منه (4).

وعن أبي الصلت الهروي قال:

ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا ولا رآه عالم إلاّ شهد له بمثل شهادتي ولقد جمع المأمون في مجالس له ذوات عدد من علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين فغلبهم عن آخرهم حتى ما بقي منهم أحد إلاّ أقرّ له بالفضل وأقرّ على نفسه بالقصور (5).

وعنه أيضاً:

ولقد سمعت علي بن موسى الرضا يقول: كنت أجلس بالروضة والعلماء في المدينة متوافرون، فإذا أعيى الواحد عن مسألة أشاروا إليّ بأجمعهم وبعثوا إليّ بالمسائل فأجيب عليها.

وعن المأمون في حديث ولاية العهد: (ما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض) (6).

وعن المناقب: لما اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا. يقول محمد بن عيسى اليقطيني جمعت من مسائله مما سئل عنه وأجاب فيه ثمانية عشر ألف مسألة، وقد روي عنه جماعة من المصنفين منهم أبو بكر الخطيب في تاريخه والثعلبي في تفسيره والسمعاني في رسالته وابن المعتز وغيرهم وبعد حوار علمي له مع المأمون قال علي بن الجهم: فقام المأمون إلى الصلاة وأخذ بيد محمد بن جعفر وكان حاضر المجلس وتبعتهما فقال له: كيف رأيت ابن أخيك؟

فقال: عالم ولم نره يختلف إلى أحد من أهل العلم.

فقال المأمون: إنّ ابن أخيك هذا من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) الذين قال فيهم النبي(صلى الله عليه وآله): (ألا إنّ أبرار عترتي وأطايب أرومتي أحلم الناس صغاراً وأعلمهم كبار، ولا تعلموهم فإنّهم أعلم منكم ولا يخرجونكم من باب هدى ولا يدخلونكم في باب ضلال) (7).

وفي كامل ابن الأثير: وذلك أنّه أي المأمون، نظر في بني العباس وبني علي، فلم يجد أحداً أفضل ولا أورع ولا أعلم منه (8).

مواريث الأنبياء

(والنص على الإمام بعينه)

لقد عانى الأئمة والصالحون من أهل البيت أشد ما يعانيه إنسان من ظالم وجائر، فمنذ معاوية حتى هذه اللحظة بل منذ السقيفة حتى هذا الوقت وهم مع أتباعهم يعانون أشدّ أنواع الظلم والإرهاب النفسي والجسدي.

وكان الظلم القاسي من الحكّام والملوك، لعلمهم بأنّ هؤلاء الصفوة هم أحقّ الناس بالأمر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأولاهم من كل الجوانب، وكانوا على جانب عظيم من الورع والعلم والإحاطة الشاملة... لكل جوانب الإنسان.

وبالحق إنّهم ساسة العباد، وأركان البلاد، من هذا المنطلق كان الحكام يظلمونهم ويجورون عليهم طغوا على الأئمة، واحد بعد الآخر، وكم قتل واحد منهم غدراً وسمّاً، وهكذا إلى نهاية السلسلة الدموية، التي لا نزال نعيش مآسيها في ظلم علمائنا الكبار تجسّدت بقتل الشهيد السعيد السيد (محمد باقر الصدر) وشقيقته العلوية الطاهرة (بنت الهدى) وبإخفاء السيد (موسى الصدر) الذي حيكت له مؤامرة، وإلى الآن لم نعرف عنه شيئاً!

وعند ذلك يستطيع الإنسان تفسير الظاهرة الفريدة في نوعها في أهل البيت (عليهم السلام) بأنّ أكثر أولادهم لا يعرف أحدهم الآخر وقد تشردوا في كل بقاع الدنيا من الديلم حتى بلاد المغرب كل هذا كان سببه الخوف والرعب اللذان بثهما الحاكم الظالم فكان لا يأمن العلوي أن يظهر نفسه وإلاّ أخذ بالحال والساعة ويقتل على الظنّة والتهمة دون محاكمة، ومن هذا الباب حاول البعض إخفاء عقيدته عن الناس حتى لا يتهم بالرفض أو التشيّع فيقتل حالاً فنشأت العقائد الباطنية التي تحوّلت بعد ذلك إلى مذهب من أخطر المذاهب الإسلامية. وكان نتيجة هذا الحدث الرهيب أن تحوّلت الشيعة إلى شيع، والفرقة إلى فرق، فمنهم من تحوّلت نتيجة الخفاء في

شخصية الإمام، ومنهم من تحوّلت نتيجة الخفاء في الخط، وقد يعذر أحياناً بعض أتباع الأئمة نتيجة لهذا الخفاء.

والمسألة كانت لا تخصّ الأفراد العاديين بل تجاوزتها إلى أعظم الشخصيات الإسلامية. فالإمام الصادق (عليه السلام) عند حضور أجله ما استطاع أن يوصي للإمام موسى بن جعفر بعينه خوفاً من بطش المنصور ولهذا أوصى لخمسة أحدهم المنصور وزوجته حميدة ووالي المدينة وولديه الأفطح وموسى.

وعندما علم المنصور بوفاة الصادق (عليه السلام) بعث لواليه يقول: إن كان جعفر بن محمد قد أوصى إلى شخص بعينه فقدمه واضرب عنقه، فأخبره الوالي بأنّه قد أوصى إلى خمسة وهو منهم فقال لا سبيل إلى قتل هؤلاء جميعاً وهكذا استطاع الإمام بثاقب رأيه أن يحمي ابنه الإمام موسى من المنصور وقد عمل الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) على نفس الخطى ليحمي رسالته ونهجه الأقدس الذي أمر الله تعالى به فلم يوضح للناس جميعاً عن وصية علي بل ترك الأمر موقوفاً على بعض المقربين من العلماء وهم بدورهم يبينون للطائفة وجود الإمام وعلومه، ولقد كان الإمام موسى يعاني من هارون الرشيد أشدّ أنواع الظلم وأمرّه، ومات بتلك الميتة المريبة وبقي في السجن سبع سنين حتى خفي الأمر على كثير من شيعته ومحبّيه، وكان هذا غرض السلطة الحاكمة الإبعاد بينه وبين مواليه، ليقطع حبل المودّة والألفة بينهم فيتحولون إلى غيره من العلماء.

ونتيجة لما بيّناه من بعد الإمام عن الشيعة وغيابه عنهم سبع سنوات وبعد ولده عنه في المدينة، وعدم توفير وسيلة إعلامية كافية، كان كثير منهم لا يعترف بإمامة الإمام (علي الرضا)، إلاّ بعد أن ظهر له منها الدلائل الواضحة على إمامته.

وهناك نصوص عامة تشمل الإمام بعمومها وهناك نصوص خاصّة تدل عليه وحده.

بعض النصوص العامة

1- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

(الأئمة بعدي اثنا عشر أولهم علي بن أبى طالب وآخرهم القائم هم خلفائي وأوصيائي وأوليائي وحجج الله على أمتي بعدي المقرّ بهم مؤمن، والمنكر لهم كافر) (9).

2- عن عبد الله بن العباس، قال:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أنا سيد النبيّين، وعلي بن أبي طالب سيد الوصيين وإنّ أوصيائي بعدي اثنا عشر، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم القائم) (10).

3- عن عبد الله بن العباس قال:

سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: (أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهّرون معصومون) (11).

4- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

(اثنا عشر من أهل بيتي أعطاهم الله فهمي وعلمي وحكمتي وخلقهم من طينتي، فويل للمنكرين عليهم، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي).

هذه النصوص العامة، وعشرات أمثالها، تدلّ بشموليتها وسعتها على كل الأئمة الاثني عشر ومن جملتهم هذا الإمام العظيم.

وأكتفي من النصوص العامة بهذا المقدار تاركاً المجال لمن أراد الاستقصاء والاستقراء وإليك بعض النصوص الخاصة من قبل أبيه الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام):

1- روي في الكافي عن الحسين بن نعيم الصحاف أنه قال:

كنت أنا وهشام بن علي بن يقطين ببغداد، فقال علي بن يقطين: كنت عند السعيد الصالح - أي الإمام موسى بن جعفر - جالساً فدخل عليه ابنه علي الرضا فقال الإمام: يا علي بن يقطين، هذا علي سيد ولدي، أما إنّي قد نحلته كنيتي. فضرب هشام بن الحكم براحة جبهته ثم قال: ويحك كيف قلت؟ فقال ابن يقطين: سمعته والله منه كما قلت، فقال له هشام بن الحكم: لقد أخبرك أن الأمر له من بعده (12).

2- وروي عن معاوية بن حكيم بسنده إلى أبي الحسن موسى أنّه قال:

(إن ابني علياً أكبر ولدي عندي وأحبهم إليّ وهو ينظر معي في الجفر ولم ينظر فيه إلاّ نبيّ أو وصي نبي) (13).

3- روي في الكافي عن داود الرقي أنّه قال:

قلت لأبي إبراهيم (عليه السلام) جعلت فداك إنّي قد كبر سنّي فخذ بيدي من النار، فأشار إلى ولده أبي الحسن الرضا وقال: (هذا صاحبكم من بعدي).

4- وروي أيضا عن محمد بن عمر عن إسحاق بن عمّار أنّه قال:

قلت لأبي الحسن الأول: ألا تدلّني إلى من آخذ عنه ديني؟ قال: (هذا ابني علي، إنّ أبي أخذ بيدي فأدخلني إلى قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: يا بني إنّ الله عزّ وجل يقول: (إنّي جاعل في الأرض خليفة) وإنّ الله إذا قال قولاً وفى به).

5- وفي رواية ثانية رواها الكليني عن داود الرقي أنّه قال:

قلت لأبي الحسن موسى: إنّي قد كبر سني، ودقّ عظمي، وإنّي سألت أباك (عليه السلام) فأخبرني عنك فأخبرني مَن بعدك؟ فقال: (هذا أبو الحسن الرضا).

6- عن نصر بن قابوس أنّه قال:

قلت لأبي إبراهيم (عليه السلام): إنّي سألت أباك: من الذي يكون من بعدك؟ فأخبرني أنّك أنت هو، فلما توفي ذهب الناس يميناً وشمالاً وقلت فيك أنا وأصحابي، فأخبرني مَن الذي يكون بعدك من ولدك؟ فقال: (ابني فلان) أي الرضا.

7- وجاء في رواية داود بن سليمان أنّه قال:

قلت لأبي إبراهيم: إنّي أخاف أن يحدث عليك حدث ولا ألقاك، فأخبرني عن الإمام بعدك؟ فقال: (ابني هذا) وأشار إلى أبي الحسن الرضا (عليه السلام).

8- وروي عن محمد بن سنان قال:

دخلت على أبي الحسن موسى (عليه السلام) من قبل أن يقدم العراق بسنة، وعلي ابنه جالس بين يديه فنظر إليّ وقال: يا محمد أمّا إنّه سيكون في هذه السنة حركة فلا تجزع لذلك فقلت: وما يكون جعلت فداك أقلقني ما ذكرت؟ فقال: أصيّر إلى الطاغية أمّا أنّه لا يبدأُني منه سوء، ومن الذي يكون بعده، قال قلت: وما يكون جعلت فداك؟ قال: يضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ثم قال: من ظلم ابني هذا حقّه - وأشار إلى ولده علي الرضا (عليه السلام) - كان كمن ظلم علي بن أبي طالب حقّه وجحده إمامته بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

قلت: والله لئن مدّ الله في العمر لأسلمن له حقّه ولأقرّنّ بإمامته، قال: صدقت يا محمد يمدّ الله في عمرك، وتسلّم إليه حقّه، وتقرّ بإمامته وإمامة من يكون من بعده، قلت: ومن ذاك قال: ابنه محمد (14).

هذا غيض من فيض وهناك روايات كثيرة في هذا المجال آثرنا تركها لأهمية ما أوردناه.

وبعد وفاة الإمام موسى بن جعفر من قبل الطاغية هارون وفي هذا الجو الخانق الذي كان الناس يحاسبون ويقتلون على الظن والتهمة أظهر الإمام الرضا إمامته وجلس يعلن نفسه للناس وكان هذا الموقف من الصعوبة بمكان إلاّ أنّ الإمام اضطرّ لذلك لأنّه وقع بين محذورين.

الأول: إذا ستر نفسه عن شيعته ومواليه بعد غيبة أبيه الطويلة فسوف يؤدّي إلى انحسار وتقلّص أكيد في صفوف الشيعة وسوف يحصل كثير من الاضطّرابات الفكرية والسلوكية.

الثاني: أن يتعرض لخطر السلطة الغاشمة وربما يقتلونه كما قتل أبوه وعندئذٍ ينطفئ نور النبوّة ومصباح الإمامة ويعود الناس إلى جاهلية جهلاء. غير أنّ الإمام رأى بواسع علمه وثاقب نظره أنّ هذا الخطر أهون من الخطر الأول وأنّ هارون أشرف على نهايته، وسوف لا يتعرض له لأنّ موته على يد غيره.

محاولات مخلصة

في هذا الجو المرعب الخانق يجلس الإمام ويعرض نفسه على الناس ويبدأ يحدث الناس عن الحلال والحرام وكل ما في الدنيا، إنّه لشيء عجيب!

أمام هذا الحادث الخطير خاف بعض المخلصين من شيعته على حياته وجاءوا إليه يطلبون إليه التريث في الإعلان لتهدأ العاصفة الرهيبة وينحسر الموج الجنوني في حبّ السلطة، فمن جملة هذه المحاولات ما صدر عن (صفوان الجمال) وجماعة من المخلصين حيث جاءوا إليه، وقالوا له: إنّك أظهرت أمراً عظيماً، وإنّنا نخاف عليك من هذا الطاغي فقال الإمام علي الرضا (عليه السلام): يجهد جهده فلا سبيل له عليّ (15).

وعن محمد بن سنان قال:

قلت لأبي الحسن الرضا أيام هارون: إنّك قد شهرت نفسك بهذا الأمر وجلست مجلس أبيك وسيف هارون يقطر الدم. قال (عليه السلام): (جرأني على هذا ما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أخذ أبو جهل من رأسي شعرة، فاشهدوا إنّي لست بنبي). وأنا أقول لكم: إن أخذ هارون من رأسي شعرة، فأنا لست بإمام).

نوايا غير مخلصة

غير أن الجماعة، الذين يعيش حبّ الدنيا في قلوبهم، رأوا أنّ ظهور الإمام يخرب عليهم مطامعهم ويهدم عليهم بناءهم الذي بنوه على غير أساس متين وكان حبّ المال قد أعمى قلوبهم، فسلكوا مسلكاً يظهر سوء عاقبتهم وبعدهم عن منهج الحق.

ولنقرأ هذا الحوار الذي رواه لنا (أبو مسروق) بين الإمام وبين بعض هؤلاء:

دخل على الرضا (عليه السلام) جماعة من الواقفة فيهم علي بن حمزة البطائني ومحمد بن إسحاق بن عمّار والحسين بن عمران والحسين بن أبي سعيد المكاري. فقال له علي بن حمزة: جعلت فداك أخبرنا عن أبيك ما حاله؟

فقال: قد مضى (عليه السلام).

فقال له: فإلى من عهد؟

فقال: إليّ.

فقال له: إنّك لتقول قولاً ما قاله أحد من آبائك، علي بن أبي طالب فمن دونه.

قال: لكن قد قاله خير آبائي وأفضلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال له: ألا تخاف هؤلاء على نفسك؟

فقال: لو خفت عليها كنت عليها معيناً، إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أتاه أبو لهب فتهدده، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): إن خدشت من قبلك خدشة فأنا كذاب! فكانت أول آية نزع بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهي أول آية أنزع بها لكم.. إن خدشت خدشاً من قبل هارون فأنا كذاب! فقال له الحسين بن مهران: قد أتانا ما نطلب إن أظهرت هذا القول.

قال له: فتريد ماذا؟ أتريد أن أذهب إلى هارون فأقول إنّي إمام وأنت لست في شيء؟

ما هكذا صنع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أول أمره إنّما قال ذلك لأهله ومواليه ومن يثق به دون الناس، وأنتم تعتقدون الإمامة لمن كان قبلي من آبائي وتقولون: إنّه يمنع علي بن موسى أن أباه حي وتقية، فأنا لا أتقيكم في أن أقول: إنّي إمام فكيف أتّقيكم في أنّه حيّ لو كان حيّاً. وهكذا تصدق نبوءة الإمام أخيراً ويقضي الرشيد دون أن ينال الإمام بسوء.

(1)

السلوك القدوة

إنّ من يختاره الله ويصطفيه لقيادة البشرية لابدّ وأن تتوفّر فيه أرفع الصفات وأعلاها، وأسمى النعوت وأحلاها، ليأخذ كل إنسان منه بطرف فيهيم الناس بحبه، وينتفعوا بسلوكه وأئمتنا (صلوات الله وسلامه عليهم) كانوا المثل الأعلى في السلوك الإنساني فلم يعرف عنهم رغم وجود الكثير من أعدائهم الذين يهتمون بالسقطات إلاّ أنهم خيرة البشرية في كل مصر وعصر ولم يستطع أعداؤهم أن يأخذوا عليهم ولو بغلطة صغيرة لا قيمة لها وكانوا (عليهم السلام) يقولون لمواليهم كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا.

وتعال معي أيها الأخ لنأخذ كتب التاريخ والمناقب، لنتصفح تاريخ هذا الإمام المظلوم والغريب والقدوة، ليضيء لنا سلوكه الإنساني الرفيع فينير لنا الدرب البعيد المدى.

فعن إبراهيم بن العباس الصولي أنّه قال: ما رأيت أبا الحسن الرضا جفا أحداً بكلمة قط. وما رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه. وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها. وما مدّ رجليه بين جليس له قط. ولا اتكأ بين يدي جليس له قط. ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قط. ولا رأيته تفل قط. ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط، بل كان ضحكه التبسم. كان إذا خلا ونصبت مائدته أجلس معه على مائدته مماليكه حتى البواب والسائس. إلى أن قال: فمن زعم أنّه رأى مثله فلا تصدّقوه (16).

ونزل به ضيف وكان جالساً عنده يحدّثه في بعض الليل فتغيّر السراج فمدّ الرجل يده ليصلحه فزبره أبو الحسن (عليه السلام) ثم بادره بنفسه فأصلحه ثم قال: إنّا قوم لا نستخدم أضيافنا (17).

وعن المناقب دخل الرضا الحمام. فقال له بعض الناس: دلّكني! فجعل يدلّكه فعرفوه فجعل الرجل يتعذر منه، وهو يطيّب قلبه ويدلكه.

ومن تواضعه الخلقي ما عن عمّه محمد بن الفضل:

قال الرضا لبعض مواليه يوم الفطر وهو يدعو له: تقبّل الله منك ومنّا، ثم أقام حتى إذا كان يوم الأضحى قال له: يا فلان تقبّل الله منّا ومنك قال فقلت له: يا بن رسول الله قلت في الفطر شيئاً وتقول في الأضحى غيره.

قال فقال: نعم، إنّي قلت في الفطر: تقبّل الله منك ومنّا، لأنّه فعل مثل فعلي وناسبت أنا وهو في الفعل وقلت له في الأضحى: تقبّل الله منّا ومنك لأنّه يمكننا أن نضحي ولا يمكنه أن يضحي فقد فعلنا غير فعله.

وهكذا ينسجم الإمام الرضا مع رسالته في الأخلاق فيجسّدها عملاً رسالياً يتسلق به قمة الكمال الإنساني ويرتفع به إلى مشارف العظمة الذاتية وبهذا ومثله تعرف أصالة الإيمان وسموّ الذات ورفعتها.

ويحدد لنا الإمام الرضا (عليه السلام) نظرية الإسلام في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان عملياً ببعض اللفتات الإنسانية الواقعية في سلوكه التي يمكن أن نستلهم منها فكرة إلغاء الإسلام للفوارق الطبقية القائمة بين الأفراد والجماعات في مجال الحقوق العامة ورعاية كرامة الإنسان وأن الفارق الذي يجب ملاحظته في هذه المجالات هو إطاعة الله ومعصيته.

يقول رجل للإمام: والله ما على وجه الأرض أشرف منك أباً.

فقال: التقوى شرّفتهم وطاعة الله أحظتهم (18).

وقال له آخر: أنت والله خير الناس.

فقال له: لا تحلف يا هذا، خير منّي من كان أطوع لله وأتقى له والله ما نسخت هذه الآية (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم).

وقال أبو الصلت سألته: يا بن رسول الله ما شيء يحكيه الناس عنكم؟

قال: وما هو؟ قلت: يقولون إنّكم تدّعون أنّ الناس لكم عبيد!

قال: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت شاهد بأنّي لم أقل ذلك قط ولا سمعت أحداً من آبائي قاله قط وأنت العالم بما لنا من المظالم عند هذه الأمّة وأنّ هذه منها.

ثم أقبل عليّ فقال: يا عبد السلام، إذا كان الناس كلهم عبيدنا على ما حكوه فممن نبيعهم؟ قلت: يا بن رسول الله صدقت.

ثم قال: يا عبد السلام أمنكر أنت لما أوجب الله عزّ وجل لنا من الولاية كما ينكره غيرك.

قلت معاذ الله، بل أنا مقرّ بولايتكم (19).

فهو ينفي عن نفسه وعن آبائه ذلك الاتهام المغرض الذي يريد أعداؤهم أن يشنعوا عليهم من خلاله وقد جعله من جملة المظالم التي ارتكبتها الأمّة في حقهم فإنّهم يرون أنّ جميع الناس سواسية في الحقوق العامة ماعدا حق الولاية على الخلق التي فرضها الله لهم فإنّه ليس لغيرهم أن يدّعيها لنفسه ما عدا حق الطاعة لله في أخلص معانيها والتي غلت مراتبهم عند الله وعند الناس ما عدا هذا فالكل عبيد الله تجمعهم أم واحدة وأب واحد وربّ واحد.

فعن عبد الله بن الصلت عن رجل من أهل بلخ قال: كنت مع الرضا في سفره إلى خراسان فدعا يوماً بمائدة له فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم.

فقلت: جعلت فداك لو جعلت لهؤلاء مائدة.

فقال: إنّ الربّ تبارك وتعالى واحد والأب واحد والأم واحدة والجزاء بالأعمال (20).

فلا يرى الإمام فارقاً بينه وبين مماليكه وعبيده إلاّ في العمل وفيما عداه تلغى الفروق عندما يتعلّق الأمر بالحقوق العامّة التي يتساوى فيها جميع الأفراد فكل مخلوق وكلهم من آدم وآدم من تراب.

وحينما نرى الإمام يجلس إلى مائدته ومن حوله مماليكه وبوابه وسائس دوابه فليس إلاّ ليعطي الأمة درساً في الإنسانية الفاضلة التي تؤمن بكرامة الإنسان وليعرض نظرية الإسلام عملياً في طبيعة السلوك الذي يجب أن

يعتمده الإنسان في سلوكه مع أخيه الإنسان، فرفعة المقام وسموّ المركز لا يستدعيان أن يحتقر الإنسان من دونه في ذلك أو يشعره بوضاعة بشخصية ولو كان ذلك الإنسان عبداً مملوكاً ليتسبب من ذلك عقدة تباين الطبقات فتتسع الهوة بين أفراد الأمّة ويتوزع كيانها في فصائل متنافرة يمزّقها الحقد وتنهشها البغضاء (21).

وقد اعتمد الإسلام قانون المساواة بين أفراد الأمة في مجال الحقوق العامة تحريراً لكرامة الإنسان من الالتزامات الطبقية التي كانت معاشة في الواقع الجاهلي وفي واقع الأمم السالفة. فقد قال الله تعالي: (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم).

وقال النبي (صلى الله عليه وآله): (كلكم لآدم وآدم من تراب).

وقال (صلى الله عليه وآله): (لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى).

فعن إبراهيم بن العباس الصولي: سمعت علي بن موسى الرضا يقول: حلفت بالعتق، ولا أحلف بالعتق، إلاّ أعتقت رقبة وأعتقت بعدها ما أملك إن كان يرى أنّه خير من هذا - وأومأ إلى عبد أسود من غلمانه - بقرابتي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلاّ أن يكون لي عمل صالح فأكون أفضل منه (22).

وبهذا يحدّد لنا الإمام الخلق الإسلامي الأصيل في الحفاظ على كرامة الإنسان وإلغاء الامتيازات الطبقية، فيما عدا العمل الصالح فهو (عليه السلام) لا يرى أنّ قرابته من النبي (صلى الله عليه وآله) تعطيه امتيازاً على العبد الأسود ما لم يقترن بتلك القرابة عمل صالح يكون به الفضل والامتياز.

قال لنا أبو الحسن: إن قمت على رؤوسكم وأنتم تأكلون فلا تقوموا حتى تفرغوا. ولربما دعا بعضنا فيقال: هم يأكلون فيقول دعوهم حتى يفرغوا.

وعن نادر الخادم قال: كان أبو الحسن إذا أكل أحدنا لا يستخدمه حتى يفرغ من طعامه.

هذه بعض النماذج العملية من أخلاقه وإنسانيته التي استمدها ميراثاً نقياً يعبق بالخير والرحمة من جدّه الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) الذي توّج رسالته بشعار الأخلاق حين قال (صلى الله عليه وآله): (إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق).

ذلك التراث الإنساني الأصيل الذي تستمد الأمم قوتها من روحه وتبني عليه دعائم مجدها وتضمن به ديمومتها في البقاء.

(2)

السلوك القدوة

سلوكه في مظهره

ممّا لا نزاع فيه عند أحد ممن قرأ التاريخ وعرف سيرة أهل بيت العصمة أنّهم أبعد الناس عن الكبرياء والتعالي على الناس وأنّهم كانوا بمظهرهم الخارجي يمثّلون الإنسان المتواضع البسيط غير أنّهم من ناحية أخرى يرفضون أن يفسّروا الزهد على طريقة المتصوفين بتشعيث اللمّة ولبس الأرذل من الثياب وأكل الجشب من الطعام، فهم يرون أفضل الزهد إخفاء الزهد والنعم التي ينعم بها ربّ العباد، يجب أن تظهر على المنعم عليه بشكل واضح وملموس وإلاّ عدّ غير شاكر لنعمائه سبحانه وتعالى.

ويرون أنّ الدنيا إذا أقبلت أحقّ بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها. والإمام الرضا (عليه السلام) هو فرد من أفراد هذه الثلة الطاهرة والذي عرف بعظيم تواضعه وكبير حلمه وواسع علمه.

قال الآبي في (كنز الدرر):

دخل على الرضا بخراسان قوم من الصوفية فقالوا له: أمير المؤمنين نظر فيما ولاّه الله تعالى من الأمر فرآكم أهل البيت أولى الناس بالناس بأن تؤمّوا الناس، ونظر فيكم أهل البيت فرآك أولى الناس بالناس فرأى أن يرد الأمر إليك والأمّة تحتاج إلى من يلبس الخشن ويأكل الجشب ويركب الحمار ويعود المريض.

قال: وكان الرضا متكئاً، فاستوى جالساً ثم قال: كان يوسف نبيّاً يلبس أقبية الديباج المزررة بالذهب ويجلس على متكآت آل فرعون، ويحكم؟! إنّما يراد من الإمام قسطه وعدله، إذا قال صدق وإذا حكم عدل وإذا وعد أنجز إنّ الله لم يحرم لبوساً ولا مطعماً ثم تلا قوله تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (23).

وقيل للإمام الجواد: ما تقول في المسك؟

فقال: إنّ أبي أمر فعمل له مسك في بان يسيع مائة درهم فكتب له الفضل بن سهيل يخبره: إنّ الناس يعيبون ذلك فكتب إليه: (يا فضل أما علمت أن يوسف وهو نبي كان يلبس الديباج مزرراً بالذهب على كراسيّ الذهب فلم ينقص ذلك من حكمته شيئاً قال: ثم أمر فعملت له غالية بأربعة آلاف درهم) (24).

وبذلك يثبت الإمام أنّ المظهر الخارجي للزهد لا علاقة له بواقع الزهد بل ربما يكون ذلك زيفاً يحاول الإنسان أن يلفت به لنفسه انتباه الآخرين ومن هنا كان الإمام الرضا وغيره من الأئمة لا يرون بأساً في الظهور بمظهر العزة في اللباس والمأكل مادام ذلك لا يصطدم مع واقع الزهد الذي هو بناء النفس من الداخل على رفض الدنيا وفتنتها باعتبارها عرضا زائلاً لا بقاء له وهذا لا يمنع من أن ينال المؤمن من طيباتها بالوجه الذي أحلّه الله ولم يخلق الله الطيبات في الدنيا لينعم بها الكافر ويحرم منها المؤمن بل المؤمن أولى بنعم الله عندما يهب نفسه لله ويبذلها في سبيله.

ويحدثنا بن عباد عن طبيعة السلوك الزهدي للإمام الرضا فيقول: وكان جلوس الرضا (عليه السلام) في الصيف على حصير وفى الشتاء على مسح، ولبسه الغليظ من الثياب حتى إذا برز للناس تزين لهم (25).

فهو حين يخلو لنفسه ويبتعد عن واقع الحياة العامة تنسجم روحه مع طبيعة الرفض للزيف المتمثل في بهارج هذه الدنيا وزينتها، أمّا حين يبرز للناس فإنّه يتزين لهم انسجاماً مع ما فطروا عليه من الاهتمام بمظاهر هذه الدنيا والتمتع بطيباتها.

وهذا السلوك الزهدي الواقعي للإمام يعطينا المثال الرائع على واقعية أهل البيت في نظرتهم الصافية للحياة الخالية من كل شائبة زيف أو خداع.

(3)

السلوك القدوة

أول نصر يناله الحليم أن الناس أنصاره على الجاهل والحلم ملكة عالية يستطيع بها صاحبها أن يضبط أعصابه حتى في أمرّ الظروف وأحلكها وأقساها ويستفيد بهذه الملكة الرائعة أن يمنع كثيراً من المشاكل الصعبة كإراقة الدماء وما إليها.

وقد كان لأهل بيت العصمة أثر ملموس وواضح في هذا المجال والتحدّث عن هذه الظاهرة الفريدة في أهل البيت (عليهم السلام) يستغرق وقتاً طويلاً وإمامنا الإمام الرضا قبس من هذا النور النبوي المتدفق، وقد تعلم الحلم وكظم الغيظ من والده الإمام الكاظم الذي كان حلمه يوزن به الجبال. ولا غرابة أن يكون الإمام الرضا حليماً كأبيه بل الغرابة ألاّ يكون كذلك.

حلم الإمام الرضا وتسامحه

كان الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) قد أوصى إلى ولده الإمام الرضا وجعله وليّاً على أمواله ونسائه وأبنائه وأمهات أولاده دون أن يجعل لأبنائه الآخرين أي حقّ في التصرّف بشيء من بعده وكتب بذلك كتاباً وختمه ولعن من يفضّ ذلك الكتاب بعد أن أشهد عليه جملة من أهل بيته وأصحابه وقد نازع أخوة الإمام الرضا أخاهم في وصية أبيهم وما ترك.

فعن الكافي بسنده إلى يزيد بن سليط قال أبو عمران الطلحي قاضي المدينة: فلما مضى موسى قدّمه أخوته - أي الرضا - للطلحي. فقال العباس بن موسى: أصلحك الله وأمتع بك إنّ في أسفل هذا الكتاب كنزاً وجوهراً ويريد أن يأخذه ويحتجبه دوننا ولم يدع أبونا شيئاً إلاّ ألجأه إليه وتركنا عالة ولو أنّي أكف نفسي لأخبرتك على رؤوس الملأ.

فوثب إليه إبراهيم بن محمد وكان من شهود الوصية فقال: إذاً والله تخبر بما لا نقبله منك ولا نصدقك عليه ثم تكون عندنا ملوماً مدحوراً نعرفك بالكذب صغيراً وكبيراً وكان أبوك أعرف الناس بك لو كان فيك خير، وإن كان أبوك لعارفاً بك في الظاهر والباطن، وما كان ليأتمنك على تمرتين ثم وثب إسحاق بن جعفر فأخذ بتلابيبه فقال له: إنّك لسفيه ضعيف أحمق هذا مع ما كان منك بالأمس وأعانه القوم أجمعون.

فقال أبو عمران القاضي لعلي: قم يا أبا الحسن، حسبي ما لعنني أبوك اليوم وقد وسع لك أبوك لا والله ما أحد أعرف بالولد من والده ولا والله ما كان أبوك بمستخف في عقله وضعيف في رأيه.

فقال العباس للقاضي: أصلحك الله فض الخاتم واقرأ ما تحته.

فقال أبو عمران: لا أفضّه حسبي ما لعنني أبوك اليوم.

فقال العباس: فأنا أفضّه.

فقال: ذاك إليك.

ففضّ العباس الخاتم فإذا فيه إخراجهم وإقرار علي بها وحده وإدخاله إيّاهم في ولاية علي إن أحبّوا أو كرهوا وإخراجهم من حد الصدقة وغيرها وكان فتحه عليهم بلاء وفضيحة وذلّة ولعلي خيرة.

ثم إنّ عليّاً التفت إلى العباس فقال: يا أخي أنا أعلم أنّه حملكم على هذا، الغرائم والديون التي عليكم فانطلق يا سعيد فتعين لي ما عليهم ثم أقض عنهم واقبض زكاة حقوقهم وخذ لهم البراءة ولا والله لا أدع مواساتكم وبرّكم ما مشيت على الأرض فقولوا ما شئتم!!

فقال العباس: ما تعطينا إلاّ من فضول أموالنا وما لنا عندك أكثر.

فقال: قولوا ما شئتم فالعرض عرضكم فإن تحسنوا فذاك لكم عند الله وإن تسيئوا فإن الله غفور رحيم والله إنّكم تعرفون أن ما لي يومي هذا ولد ولا وارث غيركم فلئن حبست شيئاً ممّا تظنون أو ادخرته فإنّما هو لكم ومرجعه إليكم والله ما ملكت منذ مضى أبوك (رضي الله عنه) شيئاً إلاّ وقد سيبته حيث رأيتم، فوثب العباس فقال: والله ما هو لذلك ولا جعل الله لك من رأي علينا ولكن حسد أبينا لنا وإرادته ما أراد ممّا لا يريده الله إيّاك وإنّك لتعرف إنّي أعرف صفوان بن يحيي بياع السابري بالكوفة ولئن حللت لأغصصنه بريقه وأنت معه.

فقال علي: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، أمّا إنّي يا أخوتي فحريص على مسرّتكم الله يعلم. اللهم إن كنت تعلم أنّي أحب صلاحهم وأنّي بارّ بهم واصل لهم رقيق عليهم أعني بأمورهم ليلاً ونهاراً فاجزني به خيراً وإن كنت على غير ذلك فأنت علاّم الغيوب فاجزني به ما أنت أهله إن كان شرّاً فشر وإن كان خيراً فخير. اللهم

أصلحهم وأصلح لهم واخسأ عنّا وعنهم شرّ الشيطان وأعنهم على طاعتك ووفّقهم لرشدك، أمّا أنا يا أخي فحريص على مسرتكم جاهد في صلاحكم والله على ما تقول.

فقال العباس: ما أعرفني بلسانك، وليس لمسحاتك عندي طين (26).

بهذه الكلمات يختتم العباس حواره مع أخيه الإمام الرضا رغم أنّ الإمام كان في حواره معه رقيقاً وحليماً دون أن تصدر منه أي كلمة جارحة ورغم ثبوت الحق في جانب الإمام وتعدّيهم عليه بجرّه إلى مثل هذه المواقف غير اللائقة بمقامه وهذا ما يدل على حلم عظيم وتسامح أمام التعدّي غير المحدود.

وبالرغم من أنّ العباس تعدّى طور اللياقة في مواجهته لأخيه بقوارص الكلام وتجنيّه على أبيه الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) باتهامه له بالحسد والحيف عليهم مما يثير حفيظة الطرف المواجه فقد بقي الإمام ملتزماً بالموقف الحليم الهادئ دون أن تستفزّه حماقة أخيه أو تخرج به عن حد التوازن وليس هذا تصنعاً منه للحلم والتسامح بل هو منطلق من أصالة الخير والمحبة في نفسه التي عرف بها الأئمة عندما يواجهون التحديّات من الآخرين ومن جهة أخرى يحاول الإمام أن يحمل الآخرين على التزام صفة الحلم والتسامح عند الإساءة كعنصر من عناصر المعاملة الطيبة بينهم معللاً ذلك بأنّه يزيد في عزّة الإنسان، لأنّ الحلم والتسامح عند توفّر إمكانية الردّ والقصاص تعبّر عن قوّة التماسك عند الإنسان، وسيطرته على اندفاعاته النفسية حينما يواجه بالتحدّي وهذا ما يبعث على التقدير والإكبار له من الآخرين وخصوصاً إذا كان ذلك الإنسان متقمصاً لمسؤوليات الحكم (27).

يقول الآبي: دخل رجل على المأمون أراد ضرب عنقه، والرضا حاضر.

فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسن؟

فقال: أقول: إنّ الله لا يزيدك بحسن العفو إلاّ عزّاً. فعفا عنه (28).

(4)

السلوك القدوة

كرم الإمام وبرّه

جنونان لا خلاني الله منهما: الشجاعة والكرم، هذه الكلمة الخالدة لإمام الحق والهدى علي بن أبي طالب (عليه السلام) دلّت على أن الكرم من الصفات الخلقية العالية والكريم قريب إلى الله قريب إلى الناس قريب إلى الجنة، والبخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة.

وممّا لا شك فيه أنّ العطاء هو الذي يسير عجلة الحياة إذ أنّ الحياة بدون عطاء همود وركود وجمود وقد دفع الإسلام الناس إلى العطاء بأسلوبين الأول إلزامي والثاني إغرائي.

فالإلزامي يكون عندما تتوقف المسيرة الاجتماعية على المال يوجب على الأغنياء أن يدفعوا مقداراً معيناً من أموالهم، ثم ينفق على الفقراء فيأخذونها للسوق يشترون بها وهكذا يتحرك السوق من جديد بعد ركوده.

والقسم الثاني - أي الإغرائي - يعِد الناس القادرين على العطاء بثواب عظيم، يوم لا ينفع مال ولا بنون فمثلاً يقول الإسلام: إنّ في الجنة باباً اسمه المعروف لا يدخله إلاّ من فعل المعروف في الدنيا. وما إلى ذلك من الروايات المشجعة التي تحثّ الناس على الدفع بشكل تتغلب فيه موازين الحياة الاجتماعية التي تغلب عليها الطبقية ليتحول بعد ذلك إلى عدل ومساواة بين الناس ولم يكتف الإسلام بالأقوال من قادته العظام بل سارع

هؤلاء القادة في أسلوب عملي رائع ليبرهنوا للناس جميعاً عن أهمية الثواب الموعود به الناس يوم القيامة.
فمنذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى آخر الأئمة وهم النماذج الفضلى في العطاء والكرم.
وأمّا إمامنا الإمام الرضا (عليه السلام) هو فرع من تلك الشجرة المعطاء وثمرة من تلك النخلة الجنية فقد كان له دور كبير في ترغيب الناس على العطاء وعمل الخير بقوله وعمله وسلوكه العظيم.
يقول الإمام في حديث له مع البزنطي:
(إنّ صاحب النعمة على خطر، إنّه يجب عليه حقوق الله تعالى فيها، والله إنّه ليكون عليّ النعم من الله عزّ وجلّ فما أزال منها على وجل. وأحرّك يدي حتى أخرج الحقوق التي تجب عليّ فيها) (29).
قلت: جعلت فداك أنت في قدرك تخاف هذا؟
قال: نعم فأحمد ربّي على ما منّ به عليّ.
وعن اليسع بن حمزة قال:
كنت أنا في مجلس الرضا أحدثه وقد اجتمع عليه خلق كثير يسألوه عن الحلال والحرام إذ دخل عليه رجل طوال آدم قال له: السلام عليك يا بن رسول الله، رجل من محبّيك ومحبّي آبائك وأجدادك، مصدر من الحج وقد افتقدت نفقتي وما معي ما أبلغ مرحلة فإن رأيت أن تنهضني إلى بلدي ولله عليّ نعمة فإذا بلغت بلدي تصدّقت بالذي توليني عنك فلست موضع صدقة.
فقال له: اجلس رحمك الله.. وأقبل على الناس يحدّثهم حتى تفرّقوا وبقي هو وسليمان الجعفري وخيثمة وأنا.
فقال: أتأذنون لي بالدخول.
فقال له سليمان: قدم الله أمرك.
فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة ثم خرج ورد الباب وأخرج يده من أعلى الباب، وقال: أين الخراساني؟
فقال: ها أنا ذا.
فقال: خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤنتك ونفقتك وتبرّك بها ولا تصدق بها عني واخرج فلا أراك ولا تراني ثم خرج.
فقال سليمان: جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت فلماذا سترك وجهك؟
فقال مخافة أن أرى ذلّ السؤال في وجهه لقضاء حاجته أما سمعت حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله): المستتر بالحسنة تعدل سبعين حجة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفورٍ له). أما سمعت قول الأول:
متي آته يوماً لأطلب حاجةً***رجعت إلى هلي ووجهي بمائه
فهو يحتجب عن سائله هنا حين يقدم له العطاء لئلا ينظر لذلّ السؤال في وجهه وليحفظ السائل بعزّة نفسه حين يستتر عنه وجه المعطي في حالة العطاء ويطلب منه أن يخرج لئلا يراه صوناً لنفسه عن الشعور بالمنّة على سائله وصوناً لسائله عن تقديم الامتنان له.
وفرّق بخراسان ماله كلّه في يوم عرفة، فقال له الفضل بن سهل: إن هذا لمغرم: فقال: بل هو المغنم. لا تعدّن مغرماً ما ابتعت أجراً وكرماً (30).
وعن يعقوب بن إسحاق النوبختي قال: مرّ رجل بأبي الحسن فقال له أعطني على قدر مروءَتك.
فقال الإمام: لا يسعني ذلك.
فقال: على قدر مروءتي.
قال: أمّا إذاً فنعم. ثم قال: يا غلام أعطه مائتي دينار (31).

وامتناع الإمام من العطاء على قدر مروءته لأنّ ما يملكه لا يساوي في الإنفاق مروءته.

وعن برّه بالمساكين والفقراء ورعايته لهم يحدّثنا معمّر بن خلاّد قال: كان أبو الحسن الرضا إذا أكل أتى بصحفة فتوضع قرب مائدته فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به فيأخذ من كل شيء شيئاً فيوضع في تلك الصحفة ثم يأمر بها للمساكين.. ثم يتلو هذه الآية: (فلا اقتحم العقبة) ثم يقول: علم الله عزّ وجل أن ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنة بإطعام الطعام (32).

ويروي البيزنطي كتاباً أرسله الإمام الرضا لولده الإمام أبي جعفر يجسّد لنا روح العطاء والكرم الخيرة المتأصلة في نفوس أهل البيت يقول البزنطي: قرأت كتاب أبي الحسن الرضا (عليه السلام) إلى أبي جعفر: يا أبا جعفر بلغني أنّ الموالي إذا ركبت أخرجوك من الباب الصغير فإنّما ذلك من بخل بهم لئلا ينال منك أحد خيراً. فأسألك بحقّي عليك لا يكن مدخلك ومخرجك إلاّ من الباب الكبير. وإذا ركبت فليكن معك ذهب وفضة ثم لا يسألك أحد إلاّ أعطيته ومن سألك من عمومتك أن تبرّه فلا تعطه أقلّ من خمسين ديناراً والكثير إليك ومن سألك من عمّاتك فلا تعطها أقل من خمس وعشرين ديناراً والكثير إليك إنّي أريد أن يرفعك الله فأنفق ولا تخشّ من ذي العرش افتقاراً (33).

(5)

السلوك القدوة

التربية الهادفة والصارمة:

لم يقتصر الإمام الرضا على أسلوبه وبيانه في التربية بل تعدّاه إلى مراقبة دقيقة وسيطرة كاملة على المنهاج الحياتي ليعرف عن كثب أهمية التربية في نظر هؤلاء العظام وإليك بعض النماذج من حياته (عليه السلام):

فعن ياسر الخادم قال: أكل الغلمان يوماً فاكهة فلم يستقصوا أكلها ورموا بها فقال لهم أبو الحسن (عليه السلام) سبحان الله إن كنتم استغنيتم فإنّ أناساً لم يستغنوا أطعموا من يحتاج إليه!.

وبما أن الأوضاع الماديّة يومها كانت لا تسمح بترك الفاكهة إلى وقت آخر أي لم يكن هناك ثلاجة تحفظها والحرّ في الجزيرة العربية يفسدها وبالأخص إذا وصلت إلى درجة كبيرة من النضوج والغلمان لقصورهم لم يفكّروا فيما إذا بقي منها شيء إلاّ أن يرموه للحيوانات والبهائم كبقية الفضلات. غير أنّ الإمام نبههم إلى شيء مهم وهو أنّهم إذا استغنوا لأنّهم في بيت الإمام فليس معناه أن كل الناس أصبحت مثلهم فكم من فقير لا يستطيع شراء الفاكهة فلو أخذوا ما بقي من الفاكهة وأعطوه للفقراء والمعوزين لكان أفضل وأحسن.

وبهذا ينفي في كلامه البطر الحاصل عند الناس الذين لا يفكّرون في أحد من الفقراء والمساكين.

وعن سليمان بن جعفر الجعفري قال: كنت مع الرضا (عليه السلام) في بعض الحاجة فأردت أن أنصرف إلى منزلي. فقال لي: انصرف معي فبت عندي الليلة.

فانطلقت معه فدخل إلى داره مع المغيب، فنظر إلى غلمانه يعملون في الطين المعالف أو رأى الدواب أو غير ذلك وإذا معهم أسود ليس منهم.

فقال: ما هذا الرجل معكم؟

قالوا: يعاوننا ونعطيه شيئاً.

قال: قاطعتموه على أجرته؟

قالوا: لا هو يرضى منّا بما نعطيه.

فأقبل عليهم يضربهم بالسوط وغضب لذلك غضباً شديداً.

فقلت: جعلت فداك.. لم تدخل على نفسك؟

فقال: إنّي قد نهيتهم عن مثل هذا غير مرّة أن يعمل معهم أحد حتى يقاطعوه أجرته.

واعلم أن ما من أحد يعمل لك شيئاً بغير مقاطعة ثم زدته لهذا الشيء ثلاثة أضعاف على أجرته إلاّ ظنّ أنك قد نقصته أجرته وإذا قاطعته ثم أعطيته أجرته حمدك على الوفاء فإن زدته حبّة عرف ذلك لك ورأى أنّك قد زدته (34).

وفي هذا يبين الإمام (عليه السلام) عن أهمية العقد والالتزام به حتى لا يخلق عقداً اجتماعية فلو أنّه لم يشترط معك وعمل لك وكان ذوقه يختلف عن ذوقك في التقدير سوف يطلب منك أكثر ممّا تطلب منه، عندئذٍ يقع النزاع بين الاثنين ويحصل شيئاً لم يكن متوقعاً بينما إذا اشترط على الفصل كمّاً وكيفاً أول الأمر فلا يحصل في النهاية به أي نزاع.

وعن البيزنطي قال: بعث الرضا (عليه السلام) بحمار له فجئت إلى (صريا) فمكثت عامة الليل معه فأتيت بعشاء ثم قال: افرشوا له.. ثم أتيت بوسادة طبرية ومرادع وكساء وملحفة مروي فلما أصبت من العشاء قال لي: أتريد أن تنام؟

قلت: بلى جعلت فداك.. فطرح عليّ الملحفة والكساء ثم قال:

بيتك الله في عافية. وكنّا على سطح.

فلما نزل من عندي قلت في نفسي: قد نلت من هذا الرجل كرامة ما نالها أحد قط، فإذا هاتف يهتف بي يا أحمد ولم أعرف الصوت حتى جاءني مولى له.

فقال: أجب مولاي.. فنزلت وهو مقبل إليّ.

فقال: كفّك. فناولته كفي فعصرها.

ثم قال: إنّ أمير المؤمنين صلى الله عليه أتى صعصعة بن صوحان عائداً له فلما أراد أن يقوم من عنده قال: يا صعصعة بن صوحان.. لا تفتخر بعيادتي إيّاك وانظر لنفسك فكأن الأمر قد وصل إليك ولا يلهينّك الأمل استودعك الله وأقرأ عليك السلام كثيراً.

ففي هذا الحديث بيّن الإمام (عليه السلام) أن زيارة القائد لأحد رعيته لا يعني أن يزهو ويفخر على الناس فيها ويعتقد بأنّه من خيرة الناس بل يجب عليه أن يعمل وينظر لنفسه ويحاسبها ويهتم بشؤونها ويقيّم واقعها بعيداً عن المؤثرات الخارجية.

الأدب الرضوي

ليس في تاريخ الأدباء والحكماء كتاريخ أهل البيت (عليهم السلام) حيث إنّهم أثروا العالم الإسلامي والإنساني بروائع آدابهم وحكمهم ومن عظيم قدرها وإبداعها وروعتها يكتبها الناس أحياناً بماء الذهب ثم يحتفظون بها. والإنسان مفطور على حبّ العلم والأدب والحكمة وكلما كانت الحكم رصينة ورائعة كلّما انشدّ إليها أكثر ولهذا رأى الناس في روائع (نهج البلاغة) للإمام (عليه السلام) ما يغنيهم عن الرجوع لغيره من الحكماء كسقراط وبزرجمهر وهلم جراً.

ولا غرابة أن يكون للأئمة من أهل البيت هذه الجواهر الثمينة في الأدب والروائع العظيمة في الحكمة وهم خريجو مدرسة الثورة وربائب الرسالة والوحي. ومن هذه الأنوار العلوية والأزهار الهاشمية نور أضاء سناه وعلاه وتضوع مسكه وشذاه نور الإمام الرضا (عليه السلام) وعطره وطيبه وزهره.

وإليك بعض الروائع الأدبية والحكمية من أقواله.

سأله رجل عن قول الله عزّ وجل: (ومن يتوكّل على الله فهو حسبه):

فقال: التوكّل درجات منها أن تثق به في أمرك كلّه فما فعل بك كنت راضياً وتعلم أنّه لم يألك خيراً ونظراً، وتعلم أنّ الحكم في ذلك له فتوكل عليه بتفويض ذلك إليه، ومن ذلك الإيمان بغيوب الله التي لم يحط علمك بها فوكّلت علمها إليه وإلى أمنائه عليها ووثقت به فيها وفي غيرها.

وسئل عن حدّ التوكل؟ فقال: أن لا تخاف أحداً إلاّ الله.

ومقصود الإمام بالتوكّل هنا هو التسليم لأمر الله والرضا بقضائه.

وسأله أحمد بن نجم عن العجب الذي يفسد العمل؟

فقال: العجب درجات منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً ومنها أن يؤمن العبد بربّه فيمنّ على الله ولله المنّة فيه...

وقال (عليه السلام): خمس من لم تكن فيه فلا ترجوه لشيء من الدنيا والآخرة: من لم تعرف الوثاقة في أرومته، والكرم في طباعه، والرصانة في خلقه، والنبل في نفسه، والمخافة لربّه.

وسئل عن السفلة: فقال: من كان له شيء يلهيه من الله.

وقال (عليه السلام): إنّ الله يبغض القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال.

وقال (عليه السلام): التودّد إلى الناس نصف العقل.

وقال (عليه السلام): لا يتم عقل امرئ مسلم حتى تكون فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشرّ منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقل كثير الخير من نفسه، لا يسأم من طلب الحوائج إليه، ولا يملّ من طلب العلم طول دهره، الفقر في الله أحبّ إليه من الغنى، والذلّ في الله أحبّ إليه من العزّ مع غيره، والخمول عنده أشهى من الشهرة.

ثم قال: العاشرة.

قيل له: ما هي؟

قال: لا يرى أحداً إلاّ قال: هو خير مني واتقى.

إنّما الناس رجلان رجل خير منه واتقى ورجل شرّ منه وأدنى فإذا لقي الذي هو شرّ منه وأدنى قال: لعلّ خير هذا باطن وهو خير له وخيري ظاهر وهو شرّ لي وإذا رأى الذي هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به فإذا فعل ذلك فقد علا مجده وطاب خيره وحسن ذكره وساد أهل زمانه.

وقال (عليه السلام): الصمت باب من أبواب الحكمة... إن الصمت يكسب المحبة إنه دليل على كل خير.

وقال (عليه السلام): صديق كل امرئ عقله وعدّوه جهله.

وقال (عليه السلام): من أخلاق الأنبياء التنظيف.

وقال (عليه السلام): صاحب النعمة يجب أن يوسع على عياله.

وقال (عليه السلام): إذا ذكرت الرجل وهو حاضر فكنّه، وإذا كان غائباً فسمّه.

وقال (عليه السلام): يأتي على الناس زمان العافية فيه عشرة أجزاء تسعة منها في اعتزال الناس وواحد في الصمت.

وقال (عليه السلام): من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن خاف أمن ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم وصديق الجاهل في تعب وأفضل المال ما وقي به العرض وأفضل العقل معرفة الإنسان نفسه والمؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل وإذا قدر لم يأخذ أكثر من حقّه.

وقال (عليه السلام): من كثرت محاسنه مدح بها واستغنى عن التمدّح بذكرها.

وقال (عليه السلام): من لم يتابع رأيك في صلاحه فلا تصغ إلى رأيه ومن طلب الأمر من وجهه لم يزل ومن زلّ لم تخذله الحيلة.

وقال (عليه السلام): إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً ونشاطاً وفتوراً فإذا أقبلت تبصّرت وفهمت، وإذا أدبرت كلّت وملّت، فخذوها عند إقبالها ونشاطها، واتركوها عند إدبارها وفتورها.

وقال (عليه السلام): صاحب السلطان بالحذر، والصديق بالتواضع، والعدو بالتحرّز، والعامة بالبِشر.

وقال (عليه السلام): الأجل آفة العمل، والبر غنيمة الحازم، والتفريط مصيبة ذي القدرة، والبخل يمزّق العرض، والحب داعي المكاره، وأجلّ الخلائق وأكرمها اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وتحقيق أمل الآمل، وتصديق رجاء الراجي، والاستكثار من الأصدقاء في الحياة، والباكين بعد الوفاة.

وقال (عليه السلام): أحسن الظن بالله، فإنّ من حسن ظنّه بالله كان الله عند حسن ظنه، ومن رضي بالقليل من الرزق قبل منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفّت مؤونته ونعم أهله وبصّره الله داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام.

وقال (عليه السلام): ليس لبخيل راحة، ولا لحسود لذّة، ولا لملول وفاء، ولا لكذوب مروءة.

وقال (عليه السلام): إنّ الذي يطلب من فضل يكفّ به عياله أعظم من المجاهدين في سبيل الله.

وسئل عن خيار العباد فقال: الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا، وإذا أعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا.

وقيل له: كيف أصبحت فقال: أصبحت بأجل منقوص، وعمل محفوظ، والموت في رقابنا، والنار من ورائنا، ولا ندري ما يُفعل بنا.

وقال (عليه السلام): لا يجمع المال إلاّ بخصال خمس: بخل شديد، وأمل طويل، وحرص غالب، وقطيعة الرحم، وإيثار الدنيا على الآخرة.

وقال علي بن شعيب: دخلت على أبى الحسن الرضا، فقال لي: يا علي من أحسن الناس معاشاً؟

قلت: أنت يا سيدي أعلم به منّي.

فقال: من حسن معاش غيره في معاشه.

ثم قال: يا علي من أسوأ الناس معاشاً؟

قلت: أنت أعلم.

قال: من لم يعش غيره في معاشه.

ثم قال: يا علي! أحسنوا جوار النعم فإنّها وحشية ما نأت عن قوم فعادت إليهم، يا علي! إنّ شرّ الناس من منع رفده، وأكل وحده، وجلد عبده.

وقال (عليه السلام): عونك للضعيف أفضل من الصدقة.

وقال (عليه السلام): لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه خصال ثلاث: التفقّه في الدين، وحسن التقدير في المعيشة، والصبر على الرزايا.

وقال (عليه السلام): كفاك ممّن يريد نصحك بالنميمة ما يجد من سوء الحساب في العاقبة.

وقال (عليه السلام) في تعزية الحسن بن سهل: التهنئة بآجل الثواب خير من التعزية بعاجل المصيبة.

هذا غيض من فيض وقطرة من بحر هذا الإمام العظيم الذي ملأ الدنيا علماً وحكمة وفاض عليها ندىً وأدباً وكرماً.

وخير زاد لنا أن نعبّ من معين هذه الحكم الصافية ونزود بها فنكثر من التجمل بأخلاقها ليوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

الإمام والواقفة

قصة الوقف لم تكن قصة اعتقادية لها أسس متينة متوغلة في القدم وإنما فكرة نشأت أخيراً لأسباب مادية تافهة. وقد بيّنا سابقاً أنّ الظرف القاسي والظالم الذي كان يعيشه أهل البيت (عليهم السلام) ساعد كثيراً على خلق هذه الفكرة وأمثالها لأنّه عندما لا يستطيع الإمام أن يعيّن وصيّه ونائبه من بعده، وعند ما يتشرّد أولاد الأئمة الصالحين من علمائهم شرّ تشريد في بقاع الأرض، وعندما يبقى الإمام موسى بن جعفر في سجن الرشيد سنوات سبع، وعندما يظلل الناس جو خانق من الظلم والرعب والقهر والقسر والغلبة، عند ذلك كلّه يستطيع الشيطان أن يلعب لعبته الخبيثة ليفرق الموالين واحداً عن الآخر وكل يتخذ موقفاً مبايناً في العمل والعقيدة للموقف الآخر ممّا يؤدي بالتالي إلى التشرذم والتفرق والانكسار أمام شوكة الظلم والباطل. وهذا ما كان يتوخاه الحاكم الظالم من إلقاء جو الرعب والقتل والتشريد.

وقد لعبت الدنيا في رأس جماعة كانوا من خلص أصحاب الإمام الكاظم فغيّرتهم عن منهج الحقّ وأكلوا أموالاً طائلة لا يحلّ لهم أكلها، وابتدعوا هذا المنهج الجديد ووقفوا عند الإمام موسى بن جعفر لا يتجاوزونه وأنكروا على الإمام الرضا إمامته ووصيته الشرعية رغم وضوحها لديهم ولكن حبّ الدنيا رأس كل خطيئة.

وقد ظهرت هذه الفكرة وروج لها بعض كبار أصحاب الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) كعلي بن حمزة البطائني وزياد بن مروان القندي وعثمان بن عيسى الرواسي ويعتبر هؤلاء الثلاثة أقطاب الوقف وأول من خلق هذه البدعة.

وقد حاول هؤلاء منذ زمن الإمام موسى أن يشوّشوا مفهوم الإمامة ويخلقوا بذور مذهبهم الجديد ببعض أخبار سمعوها لم يفهموا معناها غير أن الإمام الكاظم أبان لهم فهمها والمقصود منها.

فقد روي في الغيبة عن الحسن بن الحسن في حديث له،

قال: قلت لأبي الحسن موسى (عليه السلام) أسألك.

فقال: سل إمامك.

فقلت: من تعني فإنّي لا أعرف إماماً غيرك.

قال: هو علي ابني قد نحلته كنيتي.

قلت: سيدي أنقذني من النار، فإن أبا عبد الله (عليه السلام) قال: إنّك القائم بهذا الأمر.

قال: أولم أكن قائماً؟ ثم قال: يا حسن ما من إمام يكون قائماً في أمّة إلاّ وهو قائمهم فإذا مضى عنهم فالذي يليه هو القائم والحجة حتى يغيب عنهم، فكلنا قائم فأصرف جميع ما كنت تعاملني به إلى ابني علي فالله الله ما أنا فعلت ذلك به بل الله فعل ذلك به حبّاً (35).

وهذا الحديث يكشف مدي التشوّش الفكري الذي كانوا يعانون وأنّ الفكرة بدأت بذورها من يوم سماع مثل هذه الروايات التي عصي عليهم فهمها ولكن الإمام أوضح لهم خطأهم في مثل هذا الفهم.

الإمام يضيق الخناق على الواقفة

وعندما أحسّ الإمام من أتباعه أنّهم يفكّرون مثل هذا التفكير حاول أكثر من مرة أن يجمعهم ويبيّن لهم خطأهم ليصرفهم عن هذه الفكرة وأمثالها لكي يتوبوا أو يرجعوا إلى الله.

فعن حيدر بن أيوب قال كنّا بالمدينة بـ(قبا) فيه محمد بن زيد بن علي فجاء بعد الوقت الذي كان يجيئنا فيه.

فقلنا له: جعلنا فداك وما حبسك؟!.

قال دعانا أبو إبراهيم اليوم سبعة عشر رجلاً من ولد علي وفاطمة (صلوات الله عليهما) فأشهدنا لعلي ابنه في الوصية والوكالة في حياته وبعد موته وأن أمره جائز عليهم.

ثم قال محمد بن زيد: والله يا حيدر لقد عقد له الإمامة اليوم.

وليقولن الشيعة به من بعده (36).

وعن عبدالله بن الحارث قال بعث إلينا أبو إبراهيم فجمعنا.

ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟

قلنا: لا.

قال: اشهدوا إنّ عليّاً ابني هذا وصيي والقيم بأمري وخليفتي من بعدي، من كان له عندي دين فليأخذه من ابني هذا ومن كانت له عندي عدّة فليستنجزها منه ومن لم يكن له بدّ من لقائي فلا يلقني إلاّ بكتابه.

وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال أوصى أبو الحسن موسى بن جعفر إلى ابنه علي وكتب له كتاباً أشهد فيه ستين رجلاً من وجوه أهل المدينة، فالإمام في هذه الوصية يؤكّد على ولده علي ويؤكد أنّه ميت وعلى الناس اتباع ولده علي.

يكاد المريب أن يقول خذوني

وهناك روايات رواها بعض أقطاب الوقف تبين لنا زيف هؤلاء وبدعهم فقد روي زياد بن مروان القندي فقال: دخلت علي أبي إبراهيم وعنده علي ابنه فقال لي: يا زياد هذا كتابه كتابي وكلامه كلامي ورسوله رسولي وما قال فالقول قوله (37).

وعن أحمد بن محمد الميثمي وكان واقفياً قال: حدثني محمد بن إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال: دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر وقد اشتكى شكاية شديدة وقلت له: إن كان ما اسأل الله أن لا يريناه فإلى من؟

قال: إلى علي ابني وكتابه كتابي وهو وصيي وخليفتي من بعدي (38).

وعن غنام بن القاسم قال: قال لي منصور بن يونس برزخ.

دخلت على أبى الحسن يعني موسى بن جعفر فقال لي: أما علمت ما أحدثت في يومي هذا.

قلت: لا.

قال: صيرت عليّاً ابني وصييّ والخلف من بعدي فادخل عليه وهنئه بذلك وأعلمه إنّي أمرتك بهذا.
قال: فدخلت عليه فهنأته بذلك وأعلمته أن أباه أمرني بذلك ثم جحد منصور بعد ذلك فأخذ الأموال التي كانت في يده وكسرها (39).
وكان الإمام يريد أن يسجل على منصور هذا الموقف لئلا يتمكن بعد ذلك أن ينحرف عن الجادّة ولكن حبّ المال أغراه فترك الحق واتّبع الباطل فبئس التابع والمتبوع.

الإمام موسى (عليه السلام) يحذّر الواقفة

الإمام موسى بن جعفر نظر بنور الله وفراسة المؤمن وهو الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمع فعرف من هذا النظر الدقيق أن هناك جماعة سوف تغلبهم دنياهم وهواهم وينحرفوا عن جادة الحق فحذّر ما استطاع، ووقف موقفاً لا مثيل له في الدفاع عن خط الإمامة ومنهاج الرسالة المتمثل بالأئمة الاثني عشر (صلوات الله وسلامه عليهم).
فعن البطائني قال: قلت لأبي الحسن (عليه السلام) إنّ أباك أخبرنا بالخلف من بعده فلو خبرتنا به قال: فأخذ بيدي فهزها ثم قال: (ما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتّقون) (40).
وكأنه يشير إلى الواقع المخزي الذي يصير إليه هذا الرجل بعد وضوح الحق وبيانه ويشير الإمام بصراحة إلى حركة الوقف من بعده وينعى على القائلين به دينهم في حديث رواه محمد بن سنان قال:
دخلت على أبي الحسن قبل أن يحمل إلى العراق بسنة وعلي ابنه بين يديه. فقال لي: يا محمد!. قلت: لبيّك.
قال: إنّه سيكون في هذه السنة حركة فلا تجزع منها، ثم أطرق ونكث بيده في الأرض ورفع رأسه إليّ وهو يقول: يضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (41).
قلت: وما ذاك جعلت فداك؟
قال: من ظلم ابني هذا حقّه، وجحد إمامته من بعدي، كان كمن ظلم علي بن أبي طالب حقّه، وجحد إمامته من بعد محمد (صلى الله عليه وآله).
فعلمت أنّه قد نعى إليّ نفسه ودلّ على ابنه (42).

الدوافع المادية للواقفة

إنّ الذين أثاروا مسألة الوقف وابتدعوها يحفظ التاريخ أسماءهم وإنّهم من خزنة الإمام وقوام أمره والمقربين لديه.
فحين مضى الإمام موسى إلى ربّه كان عند علي ابن حمزة البطائني ثلاثون ألف دينار وعند زياد بن مروان القندي سبعون ألف دينار وعند عثمان بن عيسى الرواسي ثلاثون ألف دينار وست جوار.
وقد نازعتهم نفوسهم في تسليم هذه الأموال لولده القائم من بعده فتحيلوا لذلك بإنكار موت الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وأنّه حيّ يرزق وإنّهم لن يسلّموا الأموال حتى يرجع فيسلّموها له.
فعن أحمد بن حماد قال: كان أحد القوام عثمان بن عيسى وكان بمصر وكان عنده مال كثير وست جوار.
قال: فبعث إليه: إنّه قد مات وقد اقتسمنا ميراثه وقد صحّت الأخبار بموته واحتجّ عليه فيه.
فكتب إليه: إن لم يكن أبوك مات فليس لك من ذلك شيء وإن كان قد مات على ما تحكي فلم يأمرني بدفع شيء إليك وقد أعتقت الجواري وتزوجتهن.

وفي رواية (الغيبة): إنّ أباك لم يمت وهو حيّ قائم ومن ذكر أنّه مات فهو مبطل (43).

ويحاول علي بن حمزة البطائني وزياد القندي أن يقفا في وجه ملاحقة الإمام لهما ومطالبته إيّاهما بالمال بإنكارهما وجود أي مال لديهما لأبيه ولكن يونس بن عبد الرحمن الذي حاول إغراءه بالمال لكي يتبني معهما الدعوة للوقف يكشف لنا عن تلبسهما بجرم السرقة واغتصاب مال الإمام.

يقول يونس: مات أبو إبراهيم وليس من قوامه أحد إلاّ وعنده المال الكثير وكان ذلك سبب وقفهم وجحدهم موته طمعاً في الأموال، كان عند زياد القندي سبعون ألف دينار وعند علي بن حمزة البطائني ثلاثون ألف دينار فلما رأيت ذلك وتبينت الحق وعرفت من أمر أبي الحسن الرضا ما علمت ودعوت الناس فبعثا إليّ وقالا: ما يدعوك إلى هذا إن كنت تريد المال فنحن نغنيك وضمنا لي عشرة آلاف دينار وقالا لي: كف، فأبيت.

وقلت لهما: إنّا روينا عن الصادقين (عليهم السلام) أنهم قالوا: إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سلب نور الإيمان وما كنت لأدع الجهاد في أمر الله على كل حال فناصباني وأضمرا لي العداوة (44).

الإمام الرضا يكشف دوافع الوقف

وفي إحدى رسائل الإمام للبيزنطي يكشف لنا الإمام عن دافع دعوة هؤلاء ودوافعها يقول: أما ابن السراج فإنّما دعاه إلى مخالفتنا، والخروج عن أمرنا أنّه عدا على مال أبي الحسن وكابرني عليه وأبى أن يدفعه، والناس كلّهم مسلمون مجتمعون على تسليمهم الأشياء كلّها إليّ فلما حدث ما حدث من هلاك أبي الحسن اغتنم فراق علي بن حمزة وأصحابه إيّاي وتعلل ولعمري ما به من علّة إلاّ اقتطاعه المال وذهابه به.

وأمّا ابن أبي حمزة فإنّه رجل تأوّل تأويلاً لم يحسن ولم يؤت علمه فألقاه إلى الناس فلج فيه وكره تكذيب نفسه في إبطال قوله بأحاديث تأوّلها ولم يحسن تأويلها ولم يؤت علمها، ورأى أنّه إذا لم يصدق آبائي بذلك لم يدر ما خبر عنه مثل السفياني وغيره أنّه كان، لا يكون منه شيء وقال لهم: ليس يسقط قول آبائي شيء ولكنه قصر علمه عن غايات ذلك وحقائقه فصار فتنة أو شبهة عليه وفرّ من أمر فوقع فيه.

وعدم ذكر الإمام لدافع المال عند البطائني وأصحابه كسبب رئيسي في التزامهم بالوقف لا يمنع من وجوده لأنّ الإمام كان في مقام دحض حجج هؤلاء وإبطال ما تعلّلوا به لذلك. وأمّا ابن السراج فباعتبار أنّه لم يتعلّل بشيء يحتج به وإنّما الظاهر من كلام الإمام أنّ اقتطاعه المال كان في حياة أبيه ولذا فقد ندد عليه بذلك فقط (45).

أحد أقطاب الوقف يعترف

وممّا يدلنا على عدم واقعية هؤلاء بالوقف وأنّها مجرد اتباع لنزوة مادية ما روي من اعتراف أحد هؤلاء القوام عند موته بفظاعة ما ارتكبه من حبس المال وعدم تسليمه للإمام الرضا (عليه السلام).

فعن (الغيبة) للطوسي: أنّ الحسين بن فضال قال: كنت أرى عند عمّي علي بن الحسين بن فضال شيخاً من أهل بغداد وكان يهازل عمي.

فقال له يوماً ليس في الدنيا شرّ منكم يا معشر الشيعة، أو قال الرافضة: فقال له عمّي: ولم لعنك الله؟

قال: أنا زوج بنت أحمد بن أبي بشر السراج قال لي لما حضرته الوفاة:

إنّه كان عندي عشرة آلاف دينار وديعة لموسى بن جعفر فدفعت ابنه عنها بعد موته وشهدت أنه لم يمت فالله الله خلصوني من النار وسلّموها للرضا فوالله ما أخرجنا حبّه ولقد تركناه يصلى في نار جهنم (46).

شيوع شبهة الوقف وخطورتها

وقد غرّر هؤلاء بصفوة بريئة من أصحاب الإمام وألقوا عليهم الشبه والتشكيكات المريبة فأذعنوا لهم ودانوا بباطلهم أمثال عبد الرحمن بن الحجاج ورفاعة بن موسى ويونس بن يعقوب وجميل بن دراج وحماد بن عيسى وأحمد بن محمد بن أبي نصر والحسن بن علي الوشا وغيرهم من كبار صحابة أهل البيت ولكنهم عادوا إلى الاعتراف بإمامة الرضا والانحراف عن مذهب الوقف.

ولكن البعض ممّن غرروا بهم ببذل المال لهم لكي يدينوا بمذهبهم لم تنفع معه حجة بل ثبتوا على ضلالهم وماتوا وهم ظالمون أمثال حمزة بن بزيع الذي عبّر عنه الإمام الرضا بالشقي.

فعن إبراهيم بن يحيى بن أبي البلاد قال:

قال الرضا: ما فعل الشقي حمزة بن بزيع.

قلت: هو ذا هو قدم.

فقال: يزعم أن أبي حيّ هم اليوم شكاك ولا يموتون غداً إلاّ على الزندقة.

قال صفوان: فقلت بيني وبين نفسي هم شكّاك قد عرفتهم فكيف يموتون غداً على الزندقة، فما لبثت إلاّ قليلاً حتى بلغت عن رجل منهم أنّه قال عند موته: هو كافر بربّ أماته، أي الإمام موسى بن جعفر.

قال صفوان: قلت: هذا تصديق الحديث.

ولقد عاني الإمام الرضا كثيراً في محاربة هؤلاء ودحض أباطيلهم وكشف دخائل نفوسهم وتعريتهم أمام الملأ لئلا تنخدع بهم النفوس الضعيفة.

تخبط بعض عناصر الواقفة

ومن المفارقات الطريفة أن البعض من هؤلاء قال بعد وفاة الإمام موسى بن جعفر بإمامة ولده أحمد فلما خرج هذا مع أبي السرايا في ثورة ابن طباطبا ضد الحكم العباسي أنكر عليه ذلك ورجع إلى القول بالوقف ولم يحدث نفسه بالاعتراف بإمامة الرضا وأنّه الخلف من بعد أبيه.

فقد حدث محمد بن أحمد بن أسيد فقال:

لما كان من أمر أبي الحسن ما كان قال إبراهيم وإسماعيل ابنا أبي السمال: فنأتي أحمد ابنه، فاختلفا إليه زماناً فلما خرج أبو السرايا خرج أحمد بن أبي الحسن معه فأتينا إبراهيم وإسماعيل وقلنا لهما: إنّ هذا الرجل قد خرج مع أبي السرايا فما تقولان؟

قال: فأنكرا ذلك من فعله ورجعا عنه وقالا: أبا الحسن حيّ نثبت على الوقف وأحسب هذا يعني إسماعيل مات على شكّه (47).

وقد استوعبت هذه الفتنة زمناً طويلاً، كانت الخلافات والمنازعات بينهما وبين الفرقة المحقّة على أشدّها، إلى أن كتب الله لها التحلّل والانقراض بعد هذا لعدم اعتمادها على أسس ثابتة تقوى على المقاومة فترة طويلة من الزمن.

الإمام الرضا (عليه السلام) يتجرّع المحن

لم ير في تاريخ بني الإنسان جماعة تحملوا مرارة الآلام وتعرضوا للرزايا كما تعرّض أهل البيت (عليهم السلام) فمنذ يوم السقيفة وهم يتجرعون المصائب والابتلاءات وناهيك بمأساة كربلاء وواقعة (فخ) وغيرهما من الأحداث الدامية التي أكلت الأخضر واليابس من العلويين.

وعندما كان أهل البيت ينتفضون حماساً لردع الظالم والوقوف مع المظلومين كان الحكّام من الطرف الآخر يخرجون عن طور العقل إلى طور الجنون في المحافظة على الحكم والوقوف أمام التحركات الجديدة.

فكم تعرض أهل البيت (عليهم السلام) لمضايقات وقتل ونهب دور وسبي نساء من أجل كرسيّ الظلمة وكم سفك دم لرسول الله وأبيح له عرض ولم يحفظ له حرمة.

ومسلسل المآسي هذا لم يتوقف دفعه بل بقي مستمراً حتى يومنا هذا ونحن نعاني من جرّاء الوقوف مع الخط الأصيل والمبدأ الإسلامي الذي لا يعرف إلاّ كرامة الإنسان ورضا الله.

وفي الزمن الذي كان فيه أبو الحسن الرضا يعيش أشدّ حالات الأسى والمرارة بفقد أبيه ويهيئ وضعه السياسي ليكفيه مع الظروف الحرجة. وإذا بمحمد بن جعفر الصادق يخرج ثائراً معلناً الثورة على الرشيد منددا بجوره وظلمه. فأرسل الرشيد إليه جيشاً للقضاء عليه بقيادة الجلودي وأمره إن ظفر به أن يضرب عنقه.

ولكن الحادثة التالية تبين لنا مدى حقد هذا الطاغية على أهل البيت (عليهم السلام) فإنّه لم يكتف منه من قتل الرجال وهدمه دورهم بل طلب إليه أن يغير على دور آل أبي طالب وسلب ما على نسائهم من ثياب وحلي ولا يدع على واحدة منهن ثوباً واحداً وحاول الجلودي أن ينفذ أمر الرشيد بنفسه فهجم على دار الإمام الرضا بخيله فلما نظر إليه الإمام جعل النساء كلهن في بيت واحد ووقف على باب البيت.

فقال الجلودي لأبي الحسن: لابدّ من الدخول إلى البيت فأسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين!!.

فقال الرضا أنا أسلبهن لك وأحلف أنّي لا أدع عليهن شيئاً إلاّ أخذته فلم يزل الإمام يطلب إليه ويحلف حتى سكن ووافق.

فدخل الإمام الرضا فلم يدع عليهن شيئاً حتى أقراطهن وخلا خيلهن وأزرهن إلاّ أخذه منهن وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير.

وليست هذه الحادثة بالأمر الغريب عن سلوك الرشيد مع العلويين - لو صحّت - وهو الممتلئ حقداً وضغينة عليهم، والذي يجعلنا نصدّق على الرشيد مثل هذه الحوادث المأسوية ما نقله ابن الأثير من قوله في حال احتضاره وإشرافه على لقاء ربّه: (وا سوأتاه من رسول الله (صلى الله عليه وآله)).

فهو تعبير صريح عمّا ارتكبه مع أهل البيت من البوائق العظام وإفصاح مرير عن الندم الذي ينهش أعماق الرشيد في ساعته هذه.

الموقف السلبي من الظلمة

عندما يطبق الحاكم الإسلامي أحكام الله تبارك وتعالى وجب على المسلمين إطاعة وإعزاز شأنه وإعلاء أمره ولا يجوز مخالفته لأنّ مخالفته هدم للدين وتقوية للشيطان.

ولكن عندما ينحرف الحاكم عن منهج الله تبارك وتعالى ويتبع سبيل الشيطان ويسلك طرق الطواغيت، على الناس محاربته حتى يفيء إلى حكم الله، فإن لم تستطع محاربته أو عزله فليس لهم إلاّ طريق واحد وهو الطريق الذي يؤدّي إلى عدم التعاون مع هذا الجائر ولو من بعيد.

وأهل البيت (عليهم السلام) عند ما رأوا هذا الجور الطاغي على الأمّة كان من واجبهم تذكير الجائر بالانحراف عن المنهج الإلهي القويم والصراط المستقيم فلما لم يوفقوا إلى ذلك وازداد الظالم بغياً وعتواً نزلوا إلى ساحة الحرب وأعلنوا الحرب المسلحة عليه حتى أريقت دماؤهم وهتكت أعراضهم وسلبت نساؤهم وشرّدوا في كل بقاع الدنيا. ولدى فشل هذه المحاولات الكثيرة في كل الأرض المحكومة بالظلم والجور اتّخذوا أسلوباً آخر في مواجهة هذا الظالم لعلّه يرتدع عن ظلمه.

وهذا الأسلوب كما ذكرنا هو عدم جواز التعاون معه بأي شكل من الأشكال. فالدخول في أي وظيفة من وظيفة الجهاز الحاكم تعتبر إثماً كبيراً وهدماً للدين سواء أكانت على مستوى المراكز الكبيرة أو الصغيرة، سواء أكانت في الجيش أو الشرطة أو جهاز المخابرات أو الدرك أو ما إليها من الوظائف التي تؤمن للظالم كرسيّه واستمرارية حكمه، وقد جاء أحد أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) وكان يخيط الثياب للجائرين فقال: يا بن رسول الله - عندما كان الإمام يحدّث عن عظمة ذنب أعوان الظلمة - أنا أخيط لهم الثياب فهل أعتبر من أعوانهم فقال الإمام: الذي يبيعك الإبر والخيوط من أعوان الظلمة أمّا أنت فمن الظلمة أنفسهم.

وقصة الإمام الكاظم مع صفوان الجمّال الذي كان عنده قوافل كبيرة يكريها لهارون على طريق الحج، فقد قال له الإمام موسى كل شيء منك جميل ما عدا إكراءك الجمال من هذا الرجل: قال يا بن رسول الله لم أكره أشراً ولا بطراً فلم يذهب إلى اللهو أو إلى الطرب مثلاً وإنّما أكريته للحج. فقال الإمام أتحب بقاءهم حتى يتم كراؤك عليهم قال نعم: قال من أحبّ بقاءهم فهو منهم!!.

وهكذا يقف أهل البيت من الظلمة هذا الموقف العنيد فلا يتعاونون معهم حتى ولو ذهبوا إلى الحج.

والموقف السلبي يعتبر أفضل وأنجح وسيلة لضرب الجهاز الحاكم لأنّه حتى يتمكن من السيطرة التامّة على جميع المرافق الحيوية، لا بدّ له من جنود وأعوان كثيرين فإذا أعرض الشعب عن التعاون معه سوف يسقط في مدّة وجيزة لا تتجاوز الأسبوع كما حصل في كثير من البلدان.

نعم كان الأئمة من أهل البيت يجيزون أحياناً لبعض المخلصين القادرين على الأسلوب المرن الذي يستطيعون بواسطته إرضاء الحاكم وقضاء حوائج المؤمنين من موالي أهل البيت بل كانوا لا يسمحون أحياناً له بترك الوظيفة كما حصل لعلي بن يقطين مع الإمام موسى بن جعفر الذي طلب إليه مراراً بالاستقالة من هذا المنصب الخطير.

والإمام يرفض قبول الاستقالة لأنّ الإمام يعتبر أنّ وجوده في هذا المنصب يريح كثيراً المؤمنين ويقضي حوائجهم.

وإمامنا الإمام الرضا (عليه السلام) سار على هذه الوتيرة عندما رأى أنّه عاجز عن القيام بثورة مسلحة تهدم عروش الظلمة، فاستعمل أسلوب الإعراض عنهم وعدم التعاون معهم وأوعز إلى كل مواليه وشيعته بعدم شرعية الولاية في هذه الدولة الظالمة.

وقد كان الحسن بن الحسين الأنباري من مواليه ومحبّيه وقد طلب إليه أن يكون والياً من قبل الحكومة العباسية الظالمة فتريّث قليلاً يتأمل وبعث للإمام يستأذن في الولاية فلم يأذن له الإمام وبقي في كل سنة يكتب للإمام طيلة أربعة عشر سنة وفي آخر السنين كتب إليه: إنّي أخاف على خيط عنقي وأن السلطان يقول: إنّك رافضي ولسنا نشكّ أنّك تركت العمل للسلطان للرفض.

فكتب إليه أبو الحسن الرضا: قد فهمت كتابك وما ذكرت فيه من الخوف على نفسك فإن كنت تعلم أنّك إذا وليّت عملت في عملك بما أمر به رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم يصير أعوانك وكتابك وأهل ملّتك، فإذا صار إليك شيء واسيت به فقراء المؤمنين حتى تكون واحداً منهم كان ذا وإلاّ فلا.

هكذا كان موقف الإمام الرضا من الجور موقفاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض. إنّهم تنكّروا لحكم الله وحرّفوا كتاب الله وعملوا بما تشتهيه نفوسهم من الملذّات والشهوات وصوروا الواقع الإسلامي المقدس إلى واقع لا يمت إلى الإسلام بصلة وأنزلوا جلال الخلافة عن المكان اللائق في الاحترام والاحتشام إلى المكان الذليل المهان. فبدل أن يكون الخليفة إنساناً ورعاً خائفاً لله عاملاً بمرضاته متجنباً لسخطه وإذا به يعلن فحشه وفجوره ويعصي ربّه علناً في شرب الخمور وهتك الأعراض وسماع الغناء والالتذاذ بالفواحش ويأمر الناس بفعلها ويدعو إلى انتشارها مما تكون نهايته أسوأ عاقبة على الدين من ألف عدو وعدو خارجي.

فهل يليق بالإمام وهو الأسوة الحسنة للمسلمين بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أن يتعاون مع هؤلاء أو هل يخيط لهم ثوباً أو يكري لهم جملاً أو يوكئ لهم وكاءً أو يوظّف عندهم رجلاً يستفيدون من خبرته ويركبون على ظهره للوصول إلى ملذّاتهم القذرة؟

كان موقع الإمام من رسول الله (صلى الله عليه وآله) قرابة وموقعه من الإسلام قيادة أن يعيش هذا اللون من السلوك لينبّه الناس إلى عظيم ما ارتكبه هؤلاء الظلمة في حقّ الشعوب الكسيرة والإنسانية المعذّبة وليفتح من جانب آخر عيون الأمّة على السلوك الإسلامي الصحيح لتتمكن الأمّة بعد ذلك من رصّ صفوفها وتوحيد كلمتها وتقوية أصالتها وارتباطها بخالقها لتسحق بعد ذلك فلول الظلمة وأتباعهم سحقاً كبيراً.

موقف السلطات الجائرة من الإمام

من المعروف حديثاً وقديماً أنّ السلطة الغاشمة لا يهدأ لها بال ولا يقرّ لها قرار، فيما إذا كانت هناك جماعة تتبنى انتقادها وتعلن للملأ مدى ظلمها وجورها وإذا حصل من هذه الجماعة ما يقض مضجع الجائرين فسوف تحاول الانتقام منها بكل وسائلها وأساليبها الملتوية ولا يسكن لها نفس أو يغمض لها جفن إلاّ إذا قمعته أو أسكنته التراب فتنام بعد ذلك عينها ويهدأ بالها وتسكن نفسها.

والشيء الذي نقوله ليس شيئاً خيالياً وإنّما شيء واقع وملموس في عالم الحقيقة.

وأول دليل على هذا واقعنا المعاصر الذي لم يعرف الإنسان منذ وجد واقعاً أظلم منه وأشدّ جوراً على الإنسانية.

وهذا الواقع الجائر ما هو إلاّ امتداد لتاريخ طويل عايشه الإنسان المتحرر مع الظلمة والجائرين.

ومنذ ذلك الحين والحكم لا يهتم إلاّ بمن يمدحه أو يثني عليه أو يذبّ عنه ويساعده على قتل الأحرار والتنكيل بالأبرياء وسجن الشرفاء وحرمان الأرامل والفقراء والأيتام والمساكين.

وكما ذكرنا عن أئمتنا أنّهم كانوا طليعة القوى المناهضة للشرّ والفئة الوحيدة التي دافعت عن كرامة الإنسان وحقوقه الاجتماعية والسياسية وقد كلّفها هذا الدفاع حياتها وراحتها، فعاشوا طوال أيامهم حياةً ليس فيها إلاّ القلق والرعب والخوف مشرّدون، نفوا من عقر دارهم كأنهم قد جنوا ما ليس يغتفر فقد تعقّبت السلطة الأموية والسلطة العباسية الجائرة أهل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم تحت كل حجر وشجر وقتلوهم على الظنّة والتهمة ولم يغفروا حتى للشيخ الكبير ولم يرحموا حتى الطفل الصغير.

وناهيك ممّا ألمّ بإمامنا موسى بن جعفر (عليه السلام) من العذاب الممضّ والتنكيل الشديد على هزال بدنه وضعف قواه فقد بقي تحت وطأة العذاب وفي ظلمات السجن طيلة سبع سنوات في المدة الأخيرة على الأقل.
ينتقل من سجن إلى سجن ومن سفّاح إلى آخر حتى انتقل إلى سجن (السندي بن شاهك) في نهاية المطاف.
وكان وراء هذا الحادث الإجرامي البشع جماعة لهم مآرب شخصية من وراء قتله وإبادته فتوصلوا للحاكم بكل وسيلة للخلاص منه حتى قتل مظلوماً مسموماً.
وعند ما قام الإمام الرضا بالأمر بعد أبيه قام أصحاب المصالح والانتهازيون يثيرون كوامن الحقد عند الرشيد غير أنّهم في هذه المرة لم يفلحوا.

محاولات للقضاء على الإمام

يقول جعفر بن يحيى: سمعت عيسى بن جعفر يقول لهارون حيث توجّه من الرمّة إلى مكة: أذكر يمينك التي حلفت بها في آل أبى طالب، فإنّك حلفت إن ادّعى أحد بعد موسى الإمامة ضربت عنقه صبراً، وهذا علي ابنه يدّعي هذا الأمر ويقال له ما يقال في أبيه. فنظر إليه مغضباً فقال: وما ترى؟ تريد أن أقتلهم جميعاً.
قال موسى بن مهران: فلما سمعت ذلك من جعفر بن يحيى صرت إليه فأخبرته.
فقال الرضا: ما لي ولهم والله لا يقدرون إليّ على شيء.
ولعلّ الرشيد خاف من العواقب فلم يجف دم موسى بن جعفر حتى يلحق به ابنه أو لعلّه عاد في هذه اللحظات إلى شيء من رشده، وإلاّ فهو الرجل المعروف بسفكه لدماء آل رسول الله (صلى الله عليه وآله).
وجهاز المخابرات في كل زمان يعتبر من أشدّ الأجهزة فساداً وانحطاطاً في الأخلاق وقد كان للرشيد جهاز فاسد ينقل له الأخبار والتحرّكات عن الإمام وعن كل القوى المعارضة، والكثرة ما فعل من أخبار كاذبة، ووشايات مغرضة، تحركت نوازع الحقد في قلب الرشيد وثارت في أعماقه الصفات السبعية وتحرّكت للانتقام من الإمام (عليه السلام).
فعن أبي الصلت الهروي قال: كان الإمام الرضا ذات يوم جالساً في منزله إذ دخل عليه رسول هارون الرشيد.
فقال أجب أمير المؤمنين.
فقام (عليه السلام) فقال: يا أبا الصلت إنّه لا يدعوني في هذا الوقت إلاّ لداهية فوالله لا يمكنه أن يعمل بي شيئاً أكرهه لكلمات وقعت إليّ من جدّي رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: فخرجت معه حتى دخلت على هارون الرشيد، فلما وقف بين يديه نظر إليه هارون الرشيد،

وقال: يا أبا الحسن قد أمرنا لك بمائة ألف درهم واكتب حوائج أهلك فلما ولىّ عنه الإمام، وهارون ينظر في قفاه قال: أردت وأراد الله وما أراد الله خير.
ويدفع الله السوء عن الإمام بعد التجائه إليه واستعانته به على ما عزم عليه الطاغية من الوقيعة به بتلك الكلمات المخلصة التي تلقاها من جدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولاية العهد

بعد أن اقتتل المأمون مع أخيه الأمين على الملك وكانت نتيجة المعارك لصالح المأمون على أخيه الأمين، نظر المأمون إلى البلاد جميعاً فإذا هي غير مستقرة وأكثرها لا تدين له بالطاعة وإن بقي على هذا المنوال سوف لن

يكون له في النهاية شيء فلقد كانت الثورات تشتعل في أكثر البلاد الإسلامية على أيدي الثوّار العلويين بالإضافة إلى أنّ الأنصار لم تكن قد بايعت له حتى يضمن الوقوف في وجه هؤلاء الثوّار. وكان هذا الظرف من أحرج الظروف وأشدّها على المأمون ولعلّه لو واجهها غيره من الملوك العباسيين لما استطاع أن يخرج منها بنتيجة حسنة لصالحه وصالحهم وأكبر الظن أنّ المعارك كانت تشتعل وتدور رحاها وتنتهي الدولة العباسية من خريطة العالم الإسلامي ويعود بنو العباس كما كانوا من قبل في دولة الأمويين.

ثورات العلويين وغيرهم

وإليك بعض الأرقام عن الثورات التي أشعلها العلويون وغيرهم باختصار.

فأبو السرايا - السري بن منصور الشيباني - الذي كان يوماً من حزب المأمون خرج بالكوفة، وكان هو وأتباعه لا يلقون جيشاً إلاّ هزموه ولا يتوجهون إلى بلد إلاّ دخلوها.

ويقال: إنّه قد قتل من أصحاب السلطان، في حرب أبي السرايا فقط مائتا ألف رجل، مع أنّ مدّته من يوم خروجه إلى يوم ضربت عنقه لم تزد على العشرة أشهر وحتى البصرة معقل العثمانية قد أيدت العلويين ونصرتهم فقد خرج فيها (زيد النار) وهو أخو الإمام الرضا (عليه السلام) ومعه علي بن محمد، كما خرج منها من قبل على المنصور إبراهيم بن عبد الله.

وفي مكة ونواحي الحجاز: خرج محمد بن جعفر الذي كان يلقّب بالديباج وتسمّى بـ(أمير المؤمنين).

وفي اليمن: إبراهيم بن موسى بن جعفر.

وفي المدينة: خرج محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وفي واسط التي كان قسم كبير منها يميل إلى العثمانية خرج جعفر بن محمد بن زيد بن علي، والحسين بن إبراهيم بن الحسن بن علي.

وفي المدائن: محمد بن إسماعيل بن محمد.

بل إنّك لا تجد قطراً إلاّ وفيه علوي يمنّي نفسه أو يمنّيه الناس بالثورة ضد العباسيين - حسبما نصّ عليه بعض المؤرخين - حتى لقد اتّجه أهل الجزيرة والشام المعروفة بتعاطفها مع الأمويين وآل مروان إلى محمد بن محمد العلوي صاحب أبي السرايا فكتبوا إليه أنهم ينتظرون أن يوجّه إليهم رسولاً ليستمعوا إليه ويطيعوه.

وأمّا ثورات غير العلويين فكثيرة أيضاً وقد كان من بينها ما يدعو إلي (الرضا من آل محمد) كثورة الحسن الهرش (198 هـ) وسواها ولا مجال هنا للتعرض إليها ومن أرادها فعليه بمراجعة (البداية والنهاية) و(الطبري) وغيرهما من كتب التاريخ. بالإضافة إلى أنّ العباسيين كانوا غير مبايعين له وبعد أن علموا منه ما يريد بولاية العهد عمدوا إلى أخسّ شخصية عباسية وهو المغني العباسي إبراهيم بن المهدي المعروف بـ(ابن شكلة) وأمّروه عليهم نكاية بالمأمون وتصرفاته.

إذاً المأمون كما ذكرنا يعيش وضعاً حرجاً للغاية فالبلاد كلّها انفتقت عليه والشعوب لم تبايع وليس له قوة عسكرية يطمئن إليها والجوع قد عمّ خراسان والقوّاد يتصرفون في الأمر كما يشاءون وليس له إمكانية مالية يستطيع إغراء بعض الوجهاء ورؤساء القبائل. إذاً فما من منقذ ينقذه من هذه الورطة. وما هو الممكن الذي يستطيع فعله المأمون أو غير المأمون من القادة؟!

ظروف البيعة وأسبابها

بعد أن اتّضح أنّ المأمون يعيش حالة بالغة الخطورة وشديدة التأزّم فكر ملياً فخرج بالنتائج التالية من أجل الحفاظ على ملكه وملك العباسيين فآمن أنّ إنقاذ الموقف يتوقف على:

1- إخماد ثورات العلويين الذين كانوا يتمتعون بالاحترام والتقدير ولهم نفوذ واسع في جميع الفئات والطبقات.

2- أن يحصل من العلويين على اعتراف بشرعية خلافة العباسيين وليكون بذلك قد أفقدهم سلاحاً قوياً لن يقرّ له قرار إلاّ إذا أفقدهم إيّاه.

3- استئصال هذا العطف وذلك التقدير والاحترام الذي كانوا يتمتعون به وكان يزداد يوماً عن يوم، استئصاله من نفوس الناس نهائياً والعمل على تشويههم أمام الرأى العام فالطرق والأساليب التي لا تثير الكثير من الشكوك.

4- اكتساب ثقة العرب ومحبتهم.

5- استمرار تأييد الخرسانيين دعامة الإيرانيين له.

6- إرضاء العباسيين والمتشيعين لهم من أعداء العلويين.

7- تعزيز ثقة الناس بشخص المأمون الذي كان لقتله أخاه أثر سيئ على سمعته وثقة الناس به.

8- أخيراً أن يأمن الخطر الذي كان يتهدّده من تلك الشخصية الفذّة التي كانت تملأ جوانبه فرقاً ورعباً وأن يتحاشى الصدام المسلح معها ألا وهي شخصية الإمام الرضا (عليه السلام) وأن يمهّد الطريق للتخلّص منها والقضاء عليها قضاءً مبرماً ونهائياً (48).

هذه هي الطرق التي فكّر فيها المأمون لإيجاد دولته وإغاثتها من الانزلاقات الخطيرة التي تتعرض لها يومياً.

فما المنقذ إذاً والناس عنده أتباع وشيع وفرق هذا عثماني وهذا علوي وهذا زيدي وهذا بكري وهذا يحب الخلفاء ويعتبرهم معصومين وهذا يطعن فيهم وهذا أموي وهذا يسب الأمويين والوضع السياسي صعب للغاية.

فهل يترك الحبل على غاربه ويخرج من ظل الخلافة أو يقدمها لقمة سائغة لبني العباس بعد قتل أخيه المخلوع أو أنّه يتنازل عنها للعلويين والملك عقيم. ما الحل إذاً؟ الحل أن يتظاهر بشيء ويفعل غيره ويعيش حالة من التناقضات غريبة فيما هو يجعل علياً أفضل الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يرضى من أحد أن يتجرأ على مقام الشيخين وتراه مرة أخرى يخاطب الخليفة الثاني بـ(يا جعل) في قصة المتعة وإذا به يذكره بخير أمام محبّيه.

وإذا كتب للعباسيين الذين لا يعرفون بعد نظره يقول لهم: (إنّما أردت حقن دماءكم وحفظ سيادتكم وتوفير حظكم وأنتم لاهون سادرون عما يراد بكم) وإذا اجتمع إلى العلويين اعتذر إليهم من جرم آبائه وأجداده وإنّه سيكون لهم الدرع الحصين وسيرد لهم التراث الإسلامي العظيم وهكذا تلوّن كتلون الحرباء مرة مع هذا وأخرى مع ذاك ويكسب عطف الجميع وينهي العصيان والتمرّد على طاعته وليجمع أمره وشأنه.

وأخيراً رأى أنّه لا حل ينجح القضية الحرجة ويخلصه من كل هذه المآسي إلاّ بالعهد لعلي بن موسى الرضا وكان هذا الرأي الأخير هو أحسن الآراء التي اعتمدها لإنقاذه من ويلاته وحروبه الدامية ولهذا كتب للإمام الرضا (عليه السلام) وهو بالمدينة يرجوه بالتفضّل والقدوم عليه لينزع نفسه من الخلافة ويحوّلها إلى الإمام.

فامتنع الإمام أشدّ امتناع ورفض رفضاً مطلقاً ولكنهم أصرّوا على إخراجه من دار النبوّة ومختلف الملائكة إلى دار غربة بعيداً عن أهله ووطنه.

الإمام في طريقه إلى خراسان

لو لم يكن جلب الإمام إلى خراسان عن طريق القهر والغلبة والجبر والإكراه لما كان أي معنى لأخذه عن طريق البصرة فهمدان فخراسان، لأن طريق الجبل أقصر وأقرب والناس تسلكها ولكنها تؤدي إلى (قم) وبقية البلاد المعروفة في ولائها لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) وربما يخلقون للحكم مشاكل هو في غنى عنها فاحتاط لنفسه في هذا الطريق خوفاً من الشيعة.

ويروي الصدوق في (عيون أخبار الرضا) أنّ الإمام الرضا (عليه السلام) في طريقه إلى خراسان مرّ على (نيسابور) ونزل بمحلّة يقال لها الغزويتي أول الغزيتي وفيها حمام عرف فيما بعد بحمام الرضا وكانت هناك عين قد قل ماؤها فأقام عليها من أخرج ماءها حتى توفّر، واتّخذ من خارج الدرب حوضاً ينزل إليه بالمراقي إلى هذه العين على حدّ تعبير السيد الأمين في (الأعيان).

ومضى السيد الأمين في الجزء الرابع من الأعيان يقول:

إنّ الإمام الرضا قد اغتسل في الحوض وصلّى على ظهره والناس يتناوبون ذلك الحوض ويغتسلون فيه ويشربون منه التماساً للبركة ويصلّون على ظهره ويدعون الله عزّ وجل في حوائجهم وهي العين المعروفة بـ(عين كهلان) يقصدها الناس إلى يومنا هذا.

حديث السلسلة الذهبية

لقد جاء في الأعيان عن (الفصول المهمة) لابن الصباغ المالكي أنّه قال: حدث السعيد إمام الدنيا وعماد الدين محمد بن أبي سعيد بن عبد الكريم الوزان عن كتاب (تاريخ نيسابور) أن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) لما دخل نيسابور في السفرة التي خصّ فيها بفضيلة الشهادة كان في قبة مستورة على بغلة شهباء وقد شقّ (نيسابور) فعرض له الإمامان الحافظان للأحاديث النبوية والمثابران على السنّة المحمدية (أبو زرعة الرازي) و(محمد بن أسلم الطوسي) ومعهما خلق لا يحصون من طلبة العلم والحديث والدراية فقالا:

أيها السيد الجليل ابن السادة الأئمة بحقّ آبائك الأطهرين وأسلافك الأكرمين، إلاّ ما أريتنا وجهك الميمون المبارك ورويت لنا حديثاً عن آبائك عن جدّك محمد (صلى الله عليه وآله) نذكرك فيه. فاستوقف البغلة وأمر غلمانه بكشف المظلة عن القبة وأقرّ عيون الخلائق برؤية طلعته المباركة فكان له ذؤابتان على عاتقه والناس كلهم قيام على اختلاف طبقاتهم ينظرون إليه وهم ما بين صارخ وباك ومتمرغ بالتراب ومقبّل لحافر البغلة فصاح العلماء والفقهاء، معاشر الناس اسمعوا وعوا وأنصتوا لسماع ما ينفعكم ولا تؤذونا بكثرة صراخكم وبكائكم.

فقال الإمام الرضا (عليه السلام): حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه على زين العابدين عن أبيه الحسين شهيد كربلاء عن أبيه علي بن أبي طالب أنّه قال:

حدثني حبيبي وقرّة عيني رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن جبرئيل أنّه قال: سمعت ربّ العزّة سبحانه يقول: (كلمة لا إله إلاّ الله حصني ومن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن عذابي). ثم أرخى الستر على القبة وسار، فقدّر أهل المحابر الذين يكتبون فزادوا على عشرين ألفاً.

والحديث على ما يبدو من الأحاديث المتفق عليها بين المحدّثين وقد ذكره بهذا الإسناد كل من وصف رحلة الإمام إلى خراسان وقال أبو نعيم في (حلية الأولياء) بعد أن روى الحديث المذكور: هذا حديث ثابت مشهور بهذا الإسناد من رواية الطاهرين عن آبائهم الطيبين ومضى يقول: وكان بعض سلفنا من المحدّثين إذا روى هذا الإسناد: يقول لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لأفاق.

ونقل صاحب (كشف الغمة) في نهاية هذا الحديث كلاماً عن الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله: أنّ هذا الحديث بهذا السند بلغ بعض أمراء السامانية فكتبه بالذهب وأوصى أن يدفن معه فلما مات رُئي في المنام فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر الله لي بتلفّظي بـ(لا إله إلاّ الله وتصديقي محمداً رسول الله) مخلصاً وأني كتبت هذا الحديث بالذهب تعظيماً واحتراماً.

ويروي الصدوق في نهاية الحديث زيادة لطيفة. قال: فلما مرّت الراحلة نادانا بشروطها وأنا من شروطها والمقصود بأنّه إمام من قبل الله عزّ وجل على العباد مفترض الطاعة عليهم.

أهداف المأمون من البيعة

بعدما ذكرنا وضع المأمون السياسي المتدهور في كل الأطراف الإسلامية وأنّه أكره الإمام وألجأه للمجيء إليه كان لا بدّ لنا أن نعرف بالحدس أو التنقيب ما هي الأهداف التي توخّاها المأمون من جعل الإمام خليفة أو وليّاً للعهد.

الهدف الأول: أن يأمن الخطر الذي كان يتهدده من جانب هذه الشخصية العظيمة التي أجمع العدو والصديق على احترامها لأنّها كانت رمزاً للعلويين الذين يقومون بإشعال الثورة في كل بلد ولم يكن أحد يستغني عن علوم الإمام فيما لو أصبح أميراً إذاً سيكون للإمام اليد الطولى في تسيير دفة الحكم ولو لم يكن ثائراً، ولربما دعا الإمام الناس بعد هذا إلى نفسه وهو أحقّ الناس بهذا الأمر وهذا الذي كان يقض مضجع المأمون فجاء به ليجعله وليّ عهده فأي عمل يقوم به بعد ذلك يعتبره الناس أنّه نكران للجميل، ويستطيع المأمون حينئذٍ بأساليبه ودعاياته المضللة أن يشوّه أي حركة يقوم بها الإمام وبالأخص حينما يكون قريباً منه. وقد أشار المأمون إلى ذلك بأنّه: خشي إن ترك الإمام أن يتفتق عليه ما لا يسدّه، ويأتي عليه منه ما لا يطيقه.

الهدف الثاني: أن يجعل هذه الشخصية تحت المراقبة الدقيقة من الداخل والخارج ولا يستبعد أنّ زواج بنت المأمون من الرضا التي يكبرها بأربعين سنة ما هو إلاّ محاولة جادّة لإحصاء تحرّكات الإمام من حيث لا يشعر. ولقد كان المأمون يبعث للإمام بالوصائف مع أنّه زوج ابنته وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ أنّ المأمون خاف من أن يكون الرضا قد ملك قلب ابنته فلم تعد تنقل أخباره خوفاً من الله فكان يتفق مع الجارية المعلمة الجميلة لتنقل إليه خبر الإمام حرفياً.

ولم يكتف بكل ذلك فإنّه وضع على الإمام عيوناً آخرين يضبطون عليه كل كلمة وكل تصرّف وتحرّك.

فقد كان هشام بن إبراهيم الراشدي من أخصّ الناس عند الرضا (عليه السلام) وكانت أمور الرضا تجري من عنده وعلى يده ولكنه لما حمل إلى (مرو) اتصل هشام بن إبراهيم بذي الرئاستين والمأمون فحظي بذلك عندهما وكان لا يخفي عليهما شيئاً من أخباره فولاّه المأمون حجابة الرضا وكان لا يصل إلى الرضا إلاّ من أحب. وضيق على الرضا فكان من يقصده من مواليه لا يصل إليه وكان لا يتكلم الرضا في داره بشيء إلاّ أورده هشام على المأمون وذي الرئاستين.

وعن أبي الصلت أنّ الرضا كان يناظر العلماء فيغلبهم فكان الناس يقولون: والله إنّه أولى بالخلافة من المأمون فكان أهل الأخبار يرفعون ذلك إليه.

وكان جعفر بن محمد بن الأشعث يطلب من الإمام (عليه السلام) أن يحرق كتبه إذا قرأها مخافة أن تقع في يد غيره ويطمئنه الإمام بذلك فيهدأ.

الهدف الثالث: أن يجعل الإمام قريباً منه ليتمكن من عزله عن الحياة الاجتماعية ويبعد الناس عنه حتى لا تؤثّر فيهم شخصيته الكبيرة والأهم أنه يريد عزل الإمام عن شيعته ومواليه ويقطع صلاته بهم بحيث ينقطع هذا الحبل الطويل وبذلك يتقلص الظل العلوي حتى ينعدم نهائياً من قلوب المؤمنين.

وقد ذكرنا في الهدف الثاني أنّه كان هشام بن إبراهيم الراشدي لا يوصل إلى الإمام إلاّ من أحبّ.

والرضا (عليه السلام) ذكر هذا المعنى في رسالته إلى أحمد بن محمد البيزنطي يقول: وأمّا ما طلبت من الإذن عليّ فإن الدخول إليّ صعب وهؤلاء قد ضيّقوا عليّ في ذلك الآن فلست تقدر الآن وسيكون إن شاء الله.

كما أننا نرى أنّه عندما وصل إلى القادسية وهو في طريقه إلى مرو يقول لأحمد بن محمد بن أبي نصر: (اكر لي حجرة لها بابان: باب إلى الخان، وباب إلى خارج فإنّه أستر عليك). ولا يستبعد أن يكون عزل الإمام هو سبب إرجاعه مرتين عن صلاة العيد، وللسبب نفسه، أيضاً فرّق عنه تلامذته عندما أخبر أنّه يقوم بمهمة التدريس.

الهدف الرابع: إنّ المأمون في نفس الوقت الذي يريد فيه أن يتخذ من الإمام مجنّاً يتقي به سخط الناس على بني العباس ويحوط نفسه من نقمة الجمهور يريد أيضاً أن يستغل عاطفة الناس ومحبتهم لأهل البيت والتي زادت ونمت بعد الحالة التي خلفتها الحرب بينه وبين أخيه، ويوظّف ذلك في صالحه إنّه يهدف من وراء اللعبة أن يجبر قاعدة الإمام الشعبية الهائلة لصالح دولته فيريد أن يجعله وليّاً للعهد ليقول لهؤلاء هذا إنسان عادل وطاهر ويحب أهل البيت (عليهم السلام) فيصبح له في قلوبهم عاطفة ومحبة وفي النهاية عندما تنمو هذه المحبة يستريح من الرضا بواسطة خفية ويحافظ على هذه المكتسبات.

يقول الدكتور الشيبي وهو يتحدث عن الرضا: أنّ المأمون جعله وليّ عهده لمحاولة تأليف قلوب الناس ضد قومه العباسيين الذين حاربوه ونصروا أخاه ويقول: قد كان للرضا من قوة الشخصية وسموّ المكانة أن التف حوله المرجئة وأهل الحديث والزيدية ثم عادوا إلى مذاهبهم بعد موته.

وكذلك يقول: إنّ الرضا لم يكن بعد توليته العهد إمام الشيعة وحدهم وإنّما مرّ بنا أنّ الناس حتى أهل السنّة والزيدية وسائر الطوائف الشيعية المتناحرة قد اجتمعت على إمامته واتباعه والالتفاف حوله. وقد اعترف المأمون بأنّه الأرضى في الخاصة والعامة، وأنّ كتبه كانت تنفذ في المشرق والمغرب حتى أنّ البيعة له بولاية العهد لم تزده في النعمة شيئاً.. وأنّه كان من قوة الشخصية ما دفع أحد أعدائه لأن يقول للمأمون في حقّه: (هذا الذي بجنبك والله صنم يعبد من دون الله).

وقد ذكر المأمون في رسالته للعباسيين (.. وإن تزعموا أنّي أردت أن يؤول إليهم عاقبة ومنفعة - يعني العلويين - فإنّي في تدبيركم والنظر لكم ولعقبكم وأبنائكم من بعدكم..).

الهدف الخامس: نستطيع أن نقول إنّه يريد أن يقوي دعائم حكمه حيث أصبح الحكم بعد ولاية العهد يمتلك شخصية تعنو لها الجباه بالرضا.

ولقد كان الحكم بحاجة إلى شخصية من هذا القبيل بدل الشخصيات العلمية المهزوزة التي فشلت في المقارع الكلامية مع الآخرين من أهل المذاهب الأخرى. إنّ الحكم بحاجة إلى العلماء الأكفاء والأحرار في تقليدهم لا العلماء الجامدين والمهزوزين، ولذا رأينا الحكم يستبدل أهل الحديث بأهل الكلام فيقرب المعتزلة كبشر المريسي وأبي الهذيل العلاف وأحزابهما ولكن الشخصية العلمية التي لا يشك أحد في تفوقها هي شخصية الإمام الرضا باعتراف المأمون كما بيّنا ولهذا فقد كان الحكم يحتاج إليها أكثر من أي شخصية أخرى.

الهدف السادس: إنّه يريد أن يحمي الدولة من الانهيار بعد أن وصل إلى درجة من الانحلال والابتعاد عنه وكيف يثق الناس به وقد قتل أخاه من أجل الملك وقضى على كثير من القادة فرأى لكي يسترد الحكم عافيته ويعود له دوره أن يموّه على الأمة مرة من الزمن بإرجاع الحق إلى صاحبه ونشر لواء العدل من طريقه فيهدأ للأمة بال ويقرّ لها قرار وعندئذٍ سوف يعود إلى طبيعة عمله الظالم وسلوكه اللئيم الغاشم كأسلافه حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل.

وتأمل معي ما ورد من أنّ المأمون بعد ولاية العهد كتب إلى الجبّار بن سعد المساحقي عامله على المدينة أن أخطب الناس وأدعهم إلى بيعة الرضا فقام خطيباً فقال:

يا أيها الناس! هذا الأمر الذي كنتم فيه ترغبون، والعدل الذي كنتم تنتظرون، والخير الذي كنتم ترجون، هذا علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ستة أباؤهم ما هم! هم أفضل من يشرب صوب الغمام...

وقد أكّد ذلك بحسن اختياره إذ اختار هذه الشخصية التي تمثّل أمل الأمّة ورجائها في حاضرها ومستقبلها.

وتكون النتيجة أنّه قد حصل على حماية لكل تصرّف من تصرفاته مهما كان غريباً وبعيداً عن منطق العدل والدين.

الهدف السابع: لقد كان من نتائج اختياره الإمام والبيعة له لولاية العهد التي كان يتوقعها، أن أخمد ثورات العلويين في جميع الولايات والأقطار، ولعلّه لم تقم أي ثورة علوية ضد المأمون بعد بيعة الرضا سوى ثورة عبد الرحمن بن أحمد في اليمن وكان سببها - باتفاق المؤرخين - هو ظلم الولاة وجورهم وقد رجع إلى الطاعة بمجرد الوعد بتلبية مطالبه ويمكن لنا أن نقول أيضاً فإنّه لم يخمد ثوراتهم فحسب بل حصل على ثقة كثير منهم ومن شايعهم ووالاهم ويقول المأمون في رسالته التي أرسلها إلى عبد الله بن موسى:

(ما أظن أحداً من آل أبي طالب يخافني بعدما عملته بالرضا). ولقد كان قسم كبير من الشيعة لم يبايعوه قد دانوا له بالطاعة بعدئذٍ.

الهدف الثامن: يريد بالبيعة الحصول على اعتراف العلويين بشرعية خلافته ليمكّن دعائمها علي أعلى مستوى من الاعتراف ولقد صرّح المأمون بذلك حيث قال: فأردنا أن نجعله ولي عهدنا ليكون دعاؤه لنا وليعترف بالملك والخلافة لنا (49).

مبررات قبول الإمام لولاية العهد

ولقد قبل الإمام ولاية العهد ولكن بعد أن عرف أنّ ثمن رفضه لها لن يكون غير نفسه التي بين جنبيه هذا عدا عمّا سوف يتبع ذلك من تعرّض العلويين وكل من تشيّع لهم إلى أخطار هم في غنى عنها، ولو فرض أنّه كان له (عليه السلام) الحقّ في مثل هذه الظروف في أن يعرّض غيره من شيعته ومحبّيه والعلويين أجمع إلى الهلاك أيضاً.

هذا، عدا عن أنّه (عليه السلام) كان عليه أن يحتفظ بحياته وحياة شيعته ومحبّيه لأنّ الأمّة كانت بأمسّ الحاجة إلى وعيهم وإدراكهم ليكونوا لها قدوة ومناراً تهتدي وتقتدي به في حالكات المشاكل وظلم الشبهات.

نعم لقد كانت الأمّة بأمسّ الحاجة إلى الإمام (عليه السلام) وإلى من ربّاهم الإمام حيث كان قد غزاها في ذلك الوقت تيار فكري وثقافي غريب من الزندقة والإلحاد، وشاعت فيها الفلسفات والتشكيكات بالمبادئ الإلهية الحقّة، فكان على الإمام (عليه السلام) أن يقف ويقوم بواجبه وينقذ الأمّة، ولقد كان ذلك منه بالفعل، فلقد قام

بواجبه وأدّى ما عليه على أكمل وجه رغم قصر المدّة التي عاشها بعد البيعة نسبياً ولهذا نقرأ في الزيارة الجوادية:

(السلام على من كسرت له وسادة والده أمير المؤمنين حتى خصم أهل الكتاب وثبت قواعد الدين). والمراد بذلك الإمام الرضا (عليه السلام).

ولو أنّه رفض ولاية العهد وعرض نفسه وشيعته ومحبّيه للهلاك فلسوف لا يكون لموته وموتهم أدني أثر في هذا السبيل بل كان الأثر عكسياً وخطيراً جداً. أضف إلى ذلك: أنّ قبول الإمام بولاية العهد معناه اعتراف من العباسيين عملاً مضافاً إلى القول بأنّ العلويين لهم حقّ في هذا الأمر بل إنّهم الأحقّ فيه وأن الناس قد ظلموهم حقّهم هذا وإن ظلم الناس لهم ليس معناه عدم ثبوت ذلك الحقّ لهم.

وقد رأينا ابن المعتز يهتم في الاستدلال على أن جعل المأمون الرضا وليّاً لعهده لا يعني أنّ الحقّ في الخلافة كان للرضا والعلويين دون المأمون والعباسيين، وأنّه إنّما أعطاهم عن طريق التقوى والورع وليثبت لهم أنّ الخلافة التي ثاروا من أجل الوصول إليها وقتلوا أنفسهم في سبيلها لا تساوي عنده جناح بعوضة فهو يقول:

وأعطاكـم المـــأمون حقّ خلافةٍ***لنا حقـــها لكـــنه جـــاد بالدنيا

ليعلمكم أن الـــذي قـــد حـــرصتم***كما ينبغي للصالـحين ذوي التقوى

فمات الرضا من بـــعد ما قد علمتم***ولاذت بنا من بعـــده مـــرة أخرى

وأيضاً حتى لا يتناساهم الناس ويقطعوا آمالهم بهم وحتى لا يصدق الناس ما يشاع عنهم من أنّهم مجرّد علماء فقهاء لا يهمهم العمل لما فيه خير الأمّة. ولا يفكّرون في الخروج إلى المجتمع بصفتهم روّاد صلاح وإصلاح ولعلّ إلى ذلك يشير الإمام (عليه السلام) في قوله لمحمد بن عرفة عندما سأله عن قبوله بولاية العهد، فقال له: يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما حملك على الدخول في ولاية العهد؟ فأجابه الإمام (عليه السلام): (ما حمل جدّي على الدخول في الشورى)؟ هذا بالإضافة إلى أنّه يكون في فترة ولاية العهد قد أظهر المأمون على حقيقته أمام الملأ وعرّفهم بواقع وأهداف كل ما أقدم عليه وأزال كل شبهة وليس في ذلك كما قد حدث ذلك بالفعل.

سؤال وجواب

هل يعقل أنّ رجلاً تعرض عليه الخلافة أو ولاية العهد بل ما هو أقل منها بمراتب ويعرف جدية العرض ثم يرفض ذلك رفضاً قاطعاً ثم يهدد فلا يقبل إلاّ بما هو أبعد منالاً، وأقلّ احتمالاً بالنسبة إلى سنّه وبشروط تبعده كل البعد عن مسرح السياسة والحكم وتجعل من كل شيء مجرّد إجراءات شكلية لا أثر لها.

هل يعقل أنّ رجلاً من هذا القبيل يسلم من أن ينسب إلى ما لا يرضى به أحد بأن ينسب إليه؟!! اللهم إلاّ إذا كان هناك ما هو أعظم وأدهى وأخطر من ذلك المنصب، وإلاّ إذا علم أنّه سوف يدفع ثمن ذلك غالياً وغالياً جداً، ألا وهو نفسه التي بين جنبيه.

والإمام الذي يعرف ويعرف كل أحد، أنّه ذلك الرجل الجامع لكل صفات الفضل والكمال من العلم والحكمة والعقل والدراية. قد رفض كلا عرضي المأمون، الخلافة وولاية العهد رفضهما رفضاً باتاً وقاطعاً ولم يقبل ولاية العهد إلاّ على كره وإجبار وإلاّ وهو باك حزين وعاش بعد ذلك في ضيق شديد ومحنة عظيمة حتى أنّه كان يدعو الله بالفرج بالموت!!

وعليه فلا يكفي موقف الإمام هذا وسائر مواقفه من مختلف تصرّفات المأمون لأن يضع علامة استفهام كبيرة حول طبيعة هذا الحدث (50).

ألم يكن الإمام يدرك أن هناك لعبة سياسية خطيرة تنتظره من وراء هذا الكلام المعسول والاحترام الكبير.

وهل رأيت سلطة زمنية تشيد بالعلم والعلماء إلى هذا الحدّ إلاّ لمصالحها، نعم كان هناك مصلحة كبرى يتوخّاها الحكم من هذه السياسة الجديدة وهى أن تجعل الرضا وسيلة لأغراض الحكم يلعب كما يشاء في قتل الأبرياء وانتزاع حقّ الفقراء واضطهاد الناس وظلمهم ثم يطلب من الإمام مباركة هذه الأعمال الشريرة، وبالإضافة أنّ هذه اللعبة سوف تخسر الإمام الشيء الكثير وتمنعه من أي نشاط إصلاحي يمارسه حيث لم يعد بعد ذلك بإمكانه أن يقوم بأي دور في المستقبل القريب.

ولهذا امتنع عن قبول الخلافة أشدّ امتناع وكذلك عن ولاية العهد.

المفاوضات الفاشلة

نصوص تاريخية

تُحدّثنا كتب التاريخ أن المأمون كان قد عرض الخلافة على الإمام أولاً لكنّه (عليه السلام) رفض قبولها أشدّ الرفض، وبقي مدة يحاول إقناعه بالقبول فلم يفلح.

وقد ورد أنّ محاولاته هذه استمرّت في (مرو) وحدها أكثر من شهرين والإمام (عليه السلام) يأبى ذلك عليه.

بل لقد ورد أنّه (عليه السلام) كان قد أجاب المأمون بما يكره فقد قال المأمون للإمام: يا بن رسول الله قد عرفت فضلك وعلمك وزهدك وورعك وعبادتك وأراك أحقّ بالخلافة منّي.

فقال الإمام: بالزهد بالدنيا أرجو النجاة من شرّ الدنيا وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالمغانم وبالتواضع أرجو الرفعة عند الله.

قال المأمون: فإنّي قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك؟

فقال الإمام (عليه السلام): إن كانت هذه الخلافة لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسكه الله وتجعله لغيرك وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز أن تجعل لي ما ليس لك.

قال المأمون: لابدّ لك من قبول هذا الأمر!!

فقال الإمام (عليه السلام): لست أفعل ذلك طائعاً أبداً.

فما زال يجهد به أياماً والفضل والحسن يأتيانه حتى يئس من قبوله.

وخرج ذو الرئاستين مرة على الناس قائلاً: واعجباً!! وقد رأيت عجباً!! رأيت المأمون يفوّض أمر الخلافة إلى الرضا.

ورأيت الرضا يقول: لا طاقة لي بذلك ولا قدرة لي عليه فما رأيت خلافة قطّ كانت أضيع منها!!

قبول ولاية العهد بعد التهديد

الذي يبدو من ملاحظة كتب التاريخ هو أنّ محاولات المأمون لإقناع الإمام بما يريد كانت متعددة ومتنوعة، وأنّها بدأت من حين كان الإمام (عليه السلام) لا يزال في المدينة حيث كان المأمون يكاتبه محاولاً إقناعه بذلك فلم ينجح وعلم الإمام أنّه لا يكفّ عنه ثم أرسل رجاء بن أبي الضحّاك وهو قرابة الفضل والحسن بن سهل فأتى بالإمام من المدينة إلى (مرو) رغماً عنه وبذل المأمون في (مرو) أيضاً محاولات عديدة استمرّت أكثر من

شهرين وكان يتهدّد الإمام بالقتل تلويحاً تارةً وتصريحاً أخرى والإمام (عليه السلام) يأبى قبول ما يعرض عليه.. إلى أن علم أنّه لا يمكن أن يكفّ عنه وأنّه لا محيص له عن القبول فقبل ولاية العهد مكرهاً وهو باك وحزين على حدّ تعبير الكثيرين وكانت البيعة له في السابع من شهر رمضان سنة (201هـ) كما تتضح من تاريخ ولاية العهد.

بعض ما يدلّ على عدم قبول الرضا لولاية العهد

والنصوص الدّالة على عدم قبول الإمام الرضا (عليه السلام) بهذا الأمر كثيرة ومتواترة فقد قال أبو الفرج: فأرسلهم (يعنى الفضل والحسن ابني سهل) إلى علي بن موسى فعرضا ذلك - ويعني ولاية العهد - عليه فأبي فلم يزالا به وهو يأبى ذلك ويمتنع.. إلى أن قال له أحدهما: إن فعلت ذلك وإلاّ فعلنا بك وصنعنا. وتهدّداه. ثم قال له أحدهما: والله أمرني بضرب عنقك إذا خالفت ما يريد!! ثم دعا به المأمون وتهدّده فامتنع فقال له قولاً شبيهاً بالتهديد ثم قال له: إن عمر جعل الشورى في ستة أحدهم جدّك وقال: من خالف فاضربوا عنقه ولا بدّ من قبول ذلك (51).

ويروي آخرون: أنّ المأمون قال له: يا بن رسول الله إنّما تريد بذلك - يعني بما أخبره عن آبائه من موته قبله مسموماً - التخفيف عن نفسك ودفع هذا الأمر عنك ليقول الناس: إنّك زاهد في الدنيا.

فقال الرضا: والله ما كذبت منذ خلقني ربّي عزّ وجل وما زهدت في الدنيا للدنيا وإنّي لأعلم ما تريد.

فقال المأمون: وما أريد؟

قال: الأمان على الصدق!

قال: لك الأمان.

قال: تريد أن يقول الناس: إنّ علي بن موسى لم يزهد في الدنيا بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً بالخلافة.

فغضب المأمون وقال: إنّك تتلقاني أبداً بما أكره وقد آمنت سطوتي فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلاّ أجبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلاّ ضربت عنقك (52).

وقال الإمام الرضا (عليه السلام) في جواب الريان له عن سرّ قبوله لولاية العهد: قد علم الله كراهتي لذلك فلما خيّرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول على القتل ويحهم.. إلى أن قال: ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إجبار وإكراه بعد الإشراف على الهلاك.

وقال في دعاء له: وقد أكرهت واضطررت كما أشرفت من عبد الله المأمون على القتل متى لم أقبل ولاية العهد.

وقال في جواب أبي الصلت: وأنا رجل من ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أجبرني على هذا الأمر وأكرهني عليه.

بل لقد أعرب عن عدم رضاً في نفسه ما كتبه على ظهر وثيقة العهد وإنّه يعلم بعدم تمامية هذا الأمر وإنّما يفعل ذلك امتثالاً لأمر المأمون وإيثاراً لرضاه. هذا بعض ما ورد من النصوص التي تؤكّد رفض الإمام لولاية العهد.

الشروط السلبية مع الحكم

بعد التهديد والوعيد الذي سمعت وافق الإمام مرغماً ومضطراً غير أنه لم يترك عبقريته تذهب سدىً أمام تهديدات المأمون بل استغلها استغلالاً ضيع على المأمون كل ما نصب من مكائد وحيل فلقد وافق بشرط ألاّ

يولي أحداً ولا يعزل أحداً ولا ينقض رسماً ولا يغير شيئاً ممّا هو قائم ويكون في الأمر مشيراً من بعيد فأجابه المأمون إلى ذلك.

وما شروط الإمام هذه والإصرار من الطرف الآخر إلى المواقف السلبية التي وقفها ووقفها من قبل كل آبائه من كل الحكومات الظالمة غير أنّه في هذه المرّة السلبية تشتد إذ إنّ الوالي الذي يعتبر الرجل الثاني في الدولة لا يعترف بشيء من أمورها ولا يتحمل شيئاً من تبعاتها معناه يختلف تماماً عن الرجل الذي لا يتعاون مع الدولة وهو بعيد عنها فهذا الموقف السلبي من الإمام وهو داخل الجهاز الحاكم رفض لشرعية كل تصرّفات الدولة لأنّها دولة ظالمة وجائرة.

اليوم المشهود

وعندما قبل الإمام ولاية العهد أراد المأمون أن يحتفل بهذا الحدث الكبير الذي أمن له حكمه المهزوز، فجلس للخاصّة في يوم الخميس وخرج الفضل بن سهل وأعلم الناس برأي المأمون في علي بن موسى الرضا وأنّه قد ولاّه العهد وسمّاه الرضا وأمرهم بلبس الخضرة والعود لبيعته في الخميس على أن يأخذوا رزق سنة.

فلما كان ذلك اليوم ركب الناس على طبقاتهم من القوّاد والحجاب والقضاة وغيرهم في الخضرة وجلس المأمون ووضع للرضا وسادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه وفرشه وأجلس الرضا عليها في الخضرة وعليه عمامة وسيف ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له أول الناس فرفع الرضا يده فتلقي بظهرها وجه نفسه وببطنها وجوههم.

فقال له المأمون: أبسط يدك للبيعة.

فقال له الرضا: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) هكذا كان يبايع.

فبايعه الناس ويده فوق أيديهم، ووضعت البدر وقامت الخطباء والشعراء فجعلوا يذكرون فضل الرضا وما كان من المأمون في أمره.

ثم دعا أبو عبّاد بالعباس بن المأمون فوثب فدنا من أبيه فقبل يده وأمره بالجلوس، ثم نودي على محمد بن جعفر بن محمد فقال له الفضل قم: فقام ومشى حتى قرب من المأمون. ووقف ولم يقبّل يده فقيل له امضِ فخذ جائزتك وناداه المأمون: ارجع يا جعفر إلى مجلسك فرجع تم جعل أبو عباد يدعو بعلوي وعباسي فيقبضان جوائزهما حتى نفذت الأموال.

ثم قال المأمون للرضا أخطب وتكلم فيهم.

فحمد الله وأثنى عليه وقال: لنا عليكم حقّ برسول الله (صلى الله عليه وآله) ولكم علينا حقّ به فإذا أنتم أدّيتم ذلك وجب علينا حقّ لكم. ولا يذكر عنه غير هذا في ذلك المجلس وأمر المأمون فضربت الدراهم فطبع عليها اسم الرضا وزوّج إسحاق بن موسى بن جعفر بنت عمّه إسحاق بن جعفر بن محمد وأمره أن يحجّ بالناس وخطب للرضا في بلده بولاية العهد (53).

أبو نواس يمدح الإمام

بعدما بويع للإمام الرضا (عليه السلام) بولاية العهد تجاوبت الدنيا مع هذا العهد واهتزّت فرحاً وطرباً وفاضت قرائح الشعراء تنشد النفيس من الشعر في هذه المناسبة العظيمة حيث يعلمون أنّ هذا الوقت هو الوقت

المناسب لقرض الشعر وبثّه في حقّ بني علي وفاطمة ومن فاته اليوم فسوف تفوته الفرصة لذلك جاءوا من كل حدب وصوب يؤكّدون للإمام ولاءهم بقصائدهم العصماء.

غير أن شاعراً من أكبر الشعراء في عصره لم يذكر اسمه في عداد الشعراء ولم يسمع صوته هناك وهو من هو في خدمة الدولة العباسية فكيف تأخّر ولم يحضر المهرجان الأدبي الكبير والموسم العالمي الخطير، فهل يعقل أن ينسى مثل أبي نواس، إذا الشعراء دعوا أو أنّ أبا نواس يهرب من مثل هذه المواقف التي تخلّد شعره وترفع ذكره.

وهل يبخل بباقة ورود على أئمة الحق والهدى مع أنّه نثر منها على هارون وأحزابه.

ولعلّه تغيب لعذر نجهله عن قصد أو عن غير قصد أو تغيب ليبدع في هذا الحقل الخصيب فيفكر مليّاً ليكون فارس الحلبة وشاعرها الخلاّق أو لعلّه يريد أن يخفي للناس ولاءه لعلي وآل علي حتى يكون في الرعيل الآخر فإذا ما عوتب على عدم مشاركته في هذه الحلبة الإسلامية العظيمة أنشد ومن خير ما أنشد:

قيل لـــي أنـــت أوحد الناس طراً***فـــي فـــنون مـــن الكلام النبيه

لك مـــن جـــوهر الكـــلام بديع***يثـــمر الـــدر فـــي يدي مجتنيه

فعلام تركت مـــدح ابـــن موسى***والخصال الـــتي تجمّـــعن فيه

قلت لا أستـــطيع مـــدح إمـــام***كـــان جـــبريل خـــادماً لأبيه

فأعجب المأمون هذا الشعر الجيد، وممّا يدل على إعجابه به أنّه وصله بمثل الذي وصل به الشعراء كافة وفضّله عليهم.

وهذا الشعر من أبي نواس يدلّ دلالة واضحة على أنّه علوي الهوى شيعي النزعة متتبع لأخبار آل محمد يعيش آلامهم وإن لم نعرف عنه شيئاً في مدائحهم قبل هذا ولعلّ الأجواء السياسية الساخنة هي التي هيمنت عليه وكمّت فاهه وحالت بينه وبين مدح آل البيت (عليهم السلام).

لكنه بعد أن أتيح له الجو وتنفّس ملء رئتيه أظهر ما في كوامن نفسه من محبة وعاطفة شديدة لعلي وآله. فقد خرج أبو نواس ذات يوم من داره فبصر براكب قد حاذاه فسأل عنه ولم ير وجهه وقيل إنّه علي بن موسى الرضا فأنشد يقول:

إذا أبصـــرتك العـين من بعد غاية***وعارض فـــيك الشك أثبتك القلب

ولو أن قوماً يمـــموك لقـــادهم***نسيمك حـــتى يســـتدل به الركب

وهكذا بدأ يكشف أمره ويذيع سرّه ويزين شعره بمدح آل على ليكون ذكراً له في الدنيا وأجراً وثواباً له في الآخرة.

فنظر مرة إلي الإمام وهو خارج من عند المأمون على بلغة له فدنا منه أبو نواس فسلّم عليه وقال: يا بن رسول الله قد قلت فيك أبياتاً فأحبّ أن تسمعها مني قال: هات... فأنشد.

مطهـــرون نقـــيات ثـــيابهم***تجـــري الصلاة عليهم أينما ذكرو

من لم يـــكن علـــوياً حين تنسبه***فـــما لـــه فـــي قديم الدهر مفتخر

فالله لـــما بـــرا خلـــقاً فأتقنه***صفاكم واصـــطفاكم أيـــها البشر

فأنتم المـــلأ الأعـــلى وعـــندكم***عـــلم الكتاب وما جاءت به السور

فقال الرضا: قد جئتنا بأبيات ما سبقك إليها أحد.

ثم قال: يا غلام هل معك من نفقتنا شيء؟

فقال: ثلاث مائة دينار.

فقال: أعطها إيّاه.

ثم قال: لعلّك استقللتها، يا غلام سق إليه البغلة.

إلى هنا يسدل التاريخ ستاره على مديح أبي نواس للإمام الرضا ويحرمنا من التمتّع بأفضل وأجود أنواع الشعر ويحرمنا من التغنّي بذكر أمجاد أئمة الحقّ ومصابيح الهداية.

دعبل عند الإمام الرضا

لقد مرّ على أهل البيت أدوار أحرّ من الجمر وأمرّ من الصبر فقد هدمت دورهم وهتكت حريمهم وسفكت دماؤهم حتى تفرّقوا في شتّى بقاع الدنيا وكثير منهم مات ولم يعرف نسبه وكم قد تداخل نسب لرسول الله مع الناس الاعتياديين دون علم من أحد.

ولم يكن الأمر موقوفاً على أهل البيت (عليهم السلام) وحدهم بل تعدّاهم إلى مواليهم ومحبّيهم فقد مرّ عهد على الشيعة لا يتصوّر صعوبته وشقاؤه ويكفي ما ينقله التاريخ أن الإنسان إذا قيل عنه زنديق وكافر ومشرك يسلم من الموت ويكون أهون عليه أن يقال عنه بأنّه شيعي وكان البلاء ينصبّ أكثر على العلماء والشعراء الذين ينشدون مذهب أهل البيت وأمجادهم ويخلدون مآثرهم ومناقبهم وكم اختفى عالم ولم يظهر إلاّ بعيداً عن الناس وكذلك اختفى كثير من الشعراء في دهاليز تحت الأرض خوفاً من أن يعرفوا من قبل المخابرات والجواسيس فيقتادوهم إلى المقصلة.

وقد كان هناك فئة غير قليلة لا تهاب الموت في سبيل نشر فضائل أهل البيت (عليهم السلام) فيذكرونهم بخير ولو على رؤوس الأشهاد، وهذا دعبل أحد الأشخاص الذين جاهدوا في محبّة علي وآله ردحاً غير قليل من الزمن غير مكترث ولا عابئ به يذمّ العباسيين واحداً بعد الآخر ويشنّف الآذان بقصائده العصماء في مدح آل بيت النبي (صلى الله عليه وآله).

لكنك لم تر له أثراً في الحلبة الأدبية الكبيرة التي ينادي فيها شعراء الدولة العباسية حتى أظهروا فيها كامل مواهبهم وحظوا عند الأمير وخاصته وذاع صيتهم في الآفاق.

والظاهر أنّ هذا الشاعر الفحل الذي لم تنجب دنيا الشعراء أكثر منه جرأة وتمسّكاً بمبدأه واستماتة في ولائه لآل علي، عدل عن الأسلوب الذي اتّخذه الشعراء لنيل جوائزهم العاجلة وراح يبتكر أسلوباً جديداً.

فعبّر أولاً عن طول نفسه وملحميته في الشعر العربي وثانياً عن سلاسته وحلاوة كلامه مع رصانة وعذوبة وعبّر ثالثاً عن المآسي الكبيرة التي تعرّض لها أهل البيت (عليهم السلام) بما يتفجّر له الصمّ الجماد ويتكسّر له قلب العدو الألدّ ورابعاً فلم يقتصر في قصيدته على مدح رجل واحد من أهل بيت العصمة. فقد مدحهم وبكاهم وأبكى الناس لسوء حالهم فكان مادحاً وباكياً ومؤرقاً ومقضّاً لمضاجع الظالمين.

ولدى مطلع القصيدة الغراء تندهش بهذا اللفظ القادر على تحريك المشاعر وإثارة العواطف والمعبّر كل التعبير عن بالغ الأسى وعظيم الأسف. تأمّل معي مطلع القصيدة.

تجاوبن بالأرنان والزفرات***نوائح عجم اللفظ والنطقات

ثم يستمر فيها دعبل بهذا النفس الملحمي الطويل مع الرصانة والعذوبة وكأنّه يغرف من بحر.

وعندما قرأها أمام الإمام الرضا في (مرو) أعجب بها الإمام كثيراً ودعا له وقد تأثّر الإمام في بيتين من القصيدة وبدا عليه بشكل واضح. الأول: عندما قال:

أرى فيئهم في غيرهم متقسماً***وأيديهم من فيئهم صفرات

بكى الإمام وقال: صدقت يا خزاعي.. وقد أصاب فيه دعبل الوتر الحساس للمحنة التي يعاني منها أهل البيت.

الثاني: لدي وصوله إلى هذا البيت.

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم***أكفاً عن الأوتار منقبضات

جعل الإمام يقلب كفيه ويقول: أجل منقبضات.

ولما انتهى دعبل أجازه الرضا - كما يقول في الأغاني - بعشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه، وخلع عليه خلعة من ثيابه فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها منه.

فقال لهم: إنّها تراد لله عزّ وجل وهي محرّمة عليكم فحلف أن لا يبيعها أو يعطونه بعضها فيكون في كفنه.

فأعطوه فرد كم كان في أكفانه.

وكتب قصيدته (مدارس آيات) فيما يقال على ثوب وأحرم فيه وأمر بأن يكون في كفنه ولم يزل دعبل مرهوب اللسان ويخاف من هجائه الخلفاء. قال ابن المدبر: لقيت دعبلاً فقلت له: أنت أجرأ الناس حيث تقول في المأمون:

إنّي مـــن القـــوم الذين سيوفهم***قتـــلت أخـــاك وشـــرفتك بمقعد

رفعوا محلّـــك بعـــد طول خموله***واستنـقذوك من الحضيض الأوحد

فقال: يا أبا إسحاق إنّي أحمل خشبتي منذ أربعين سنة ولا أجد من يصلبني عليها.

قصة طريفة

ومن طريف ما ينقل: أنّ دعبل انصرف من (مرو) بعد أن أنشد الرضا قصيدته التائية فمرّ في طريقه على مياه فوهان فاعترض القافلة اللصوص وأخذوها بأسرها وكتفوا أهلها وكان دعبل فيمن كتّف وملك اللصوص القافلة وجعلوا يقسمونها بينهم، فقال رجل من القوم متمثلاً بقول دعبل في قصيدته:

أرى فيئهم في غيرهم متقسماً***وأيديهم من فيئهم صفرات

فسمعه دعبل فقال له: لمن هذا البيت؟

فقال: لرجل من خزاعة يقال له دعبل بن علي.

قال دعبل: فأنا دعبل قائل هذه القصيدة التي منها هذا البيت. فوثب الرجل إلى رئيسهم وكان يصلّي على رأس تل وكان من الشيعة فأخبره فجاء بنفسه حتى وقف على دعبل.

فقال له: أنت دعبل.

فقال: نعم.

فقال له: أنشد القصيدة، فأنشدها فحلّ كتافه وكتاف جميع القافلة وردّ إليهم جميع ما أخذوا منهم كرامة لدعبل.

جانب من مناظرات الإمام (عليه السلام)

عندما أصبح الإمام الرضا وليّاً للعهد وأصبح قريباً من الحكم وتحت متناول يده أراد الحكم أن يضع من قدره فيبين للناس أنّه لا يستحق منصب الخلافة فكان المأمون يسأل الرضا أمام الملأ المسائل المحرجة والرضا (عليه السلام) يجيب بكل هدوء حتى النهاية.

وقد عمد المأمون - وكانت عادة شائعة - لخلق ندوة فكرية على مستوى علماء الأديان جميعاً من نصارى ويهود وصابئة ومجوس وغيرهم من أجل أن يحاور الإمام ويقطعوه وعندئذٍ يستطيع الحكم أن يجد مجالاً للغمز في شخصية الإمام والنيل من كرامته ويقول للناس: هذا الذي تدّعون بأنّه يعرف جميع العلوم أفحم أو سكت مقابل فلان الكافر ويثير شبهة بعد أخرى ويشوّش ما أمكن التشويش لكنه والحمد لله خسئ ولم يتجرّع إلاّ كأس الندم عندما سقطوا جميعاً في المحاورة وبقي الإمام واقفاً في حلبة الصراع كما يقف الأسد وسط عرينه.

الدعوة إلى المناظرة

قال الحسن بن محمد النوفلي: لما قدم الإمام الرضا على المأمون أمر الفضل بن سهل أن يجمع له أصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس الجالوت ورؤساء الصابئين والهربذ الأكبر وأصحاب زرادشت ونسطاس الرومي والمتكلمين ليسمع كلامه وكلامهم فجمعهم الفضل بن سهل، ثم أعلم المأمون باجتماعهم فقال:

أدخلهم عليّ ففعل فرحّب بهم المأمون، ثم قال لهم: إنّي إنّما جمعتكم لخير وأحببت أن تناظروا ابن عمّي المدني القادم عليّ فإذا كان بكرة فاغدوا علي ولا يتخلّف منكم أحد فقالوا: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين، نحن مبكرون إنّ شاء الله قال، الحسن بن محمد النوفلي: بينما نحن في حديث لنا عند أبي الحسن إذ دخل علينا ياسر الخادم، وكان يتولّى أمر أبي الحسن (عليه السلام) فقال له: يا سيدي إنّ أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول: فداك أخوك إنّه أجمع إلى أصحاب المقالات وأهل الأديان والمتكلمين من جميع الملل فرأيك في البكور إلينا إن أحببت كلامهم وإن كرهت ذلك فلا تتجشم، وإن أحببت أن نصير إليك خف ذلك علينا.

فقال أبو الحسن أبلغه السلام وقل له: قد علمت ما أردت وإنّي صائر إليك بكرة إن شاء الله، فقال الحسن بن محمد النوفلي: فلما مضى ياسر التفت إلينا ثم قال: يا نوفلي أنت عراقي ورقّة العراقي غير غليظة فما عندك في جمع ابن عمّي علينا أهل الشرك وأصحاب المقالات فقلت: جعلت فداك، يريد الامتحان ويجب أن يعرف ما عندك؟ ولقد بنى على أساس غير وثيق وبئس والله ما بنى، فقال لي: وما بناؤه في هذا الباب؟

قلت: إنّ أصحاب الكلام والبدعة خلاف العلماء ذلك أن العالم لا ينكر غير المنكر وأصحاب المقالات والمتكلمون وأهل الشرك أصحاب إنكار ومباهتة، إن احتججت عليهم بأنّ الله واحد قالوا صحّح وحدانيته، وإن قلت: إنّ محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) قالوا: أثبت رسالته ثم يباهتون الرجل وهو يبطل عليهم بحجته ويغالطونه حتى يترك قوله فأحذرهم جعلت فداك.

قال: فتبسّم، ثم قال لي: يا نوفلي أفتخاف أن يقطعوا عليّ حجتي؟

فقلت: لا والله ما خفت عليك قط وإنّي لأرجو أن يظفرك الله بهم إن شاء الله.

فقال: يا نوفلي أتحب أن تعلم متى يندم المأمون. قلت نعم.

قال: إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم وعلى أهل الزبور بزبورهم وعلى الصابئين بعبرانيتهم وعلى أهل الهرابذة بفارسيتهم وعلى أهل الروم برروميتهم وعلى أصحاب المقالات بلغاتهم. فإذا قطعت كل صنف ودحضت حجته وترك مقالته ورجع إلى قولي علم المأمون الموضع الذي هو بسبيله ليس بمستحق له، فعند ذلك يكون الندامة ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

فلما أصبحنا وأتانا الفضل بن سهل فقال له: جعلت فداك إن ابن عمّك ينتظرك وقد اجتمع القوم فما رأيك؟ في إتيانه؟

فقال له الرضا تقدمني فإنّي صائر إلى ناحيتكم إن شاء الله.

ثم توضأ للصلاة وشرب شربة سويق وسقانا منه ثم خرج وخرجنا معه حتى دخلنا على المأمون وإذا المجلس غاصّ بأهله ومحمد بن جعفر وجماعة من الطالبيين والهاشميين والقوّاد حضور، فلما دخل الرضا (عليه السلام) قال المأمون وقام محمد بن جعفر وجميع بني هاشم فما زالوا وقوفاً والرضا جالس مع المأمون حتى أمرهم بالجلوس، فجلسوا، فلم يزل المأمون مقبلاً عليه يحدثه ساعة ثم التفت إلى الجاثليق فقال: يا جاثليق هذا ابن عمّي علي بن موسى بن جعفر وهو من ولد فاطمة بنت نبيّنا وابن علي بن أبي طالب (صلوات الله عليهم) فأحبّ أن تكلمه أو تحاجّه أو تنصفه، فقال الجاثليق: كيف أحاج رجلاً يحتجّ علي بكتاب أنا منكره ونبيّ لا أؤمن به فقال له الرضا (عليه السلام): يا نصراني، فإن احتججت عليك بإنجيلك أتقرّ به.

قال الجاثليق: وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل. نعم والله أقرّ به رغم أنفي!

فقال الرضا: سلّ عمّا بدا لك واسمع الجواب.

فقال الجاثليق: ما تقول في نبوّة عيسى وكتابه هل تنكر منهما شيئاً؟

قال الرضا: أنا مقرّ بنبوّة عيسى وكتابه وما بشرّ به أمّته وأقرّ به الحواريون، وكافر بنبوّة كل عيسى لم يقرّ بنبوّة محمد (صلى الله عليه وآله) وبكتابه ولم يبشّر أمّته.

قال الجاثليق: أليس إنّما نقطع الأحكام بشاهدي عدل. قال بلى.

قال: فأقم شاهدين من غير أهل ملتك على نبوّة محمد (صلى الله عليه وآله) ممن لا تنكره النصرانية وسلفاً مثل ذلك من غير أهل ملتنا.

قال الرضا (عليه السلام): الآن جئت بالنصفة يا نصراني! ألا تقبل مني العدل المقدم عند عيسى ابن مريم؟

قال الجاثليق: ومن هذا العدل؟ سمّه لي.

قال: فأقسمت عليك هل نطق الإنجيل أن يوحنا قال: إنّما المسيح أخبرني بدين محمد العربي وبشّرني به أنّه يكون من بعده فبشّرت به الحواريون فآمنوا به.

قال الجاثليق: قد ذكر ذلك يوحنا عن المسيح وبشّر بنبوّة رجل وبأهل بيته وأمّته أتؤمن به؟

قال سديد: قال الرضا لنسطاس الرومي: كيف حفظك للسفر الثالث.

قال: ما أحفظني له، ثم التفت إلى رأس الجالوت فقال: ألست تقرأ الإنجيل؟

قال: بلى لعمري.

قال: فخذ علي السفر فإن كان فيه ذكر محمد وأهل بيته وأمّته فاشهدوا لي وإن لم يكن فيه ذكر فلا تشهدوا لي

ثم قرأ (عليه السلام) السفر الثالث حتى بلغ ذكر النبي (صلى الله عليه وآله) وقف، ثم قال: يا نصراني إنّي أسألك بحقّ المسيح وأمّه، أتعلم إنّي عالم بالإنجيل؟

قال: نعم، ثم تلا علينا ذكر محمد وأهل بيته وأمّته.

ثم قال: ما تقول يا نصراني هذا قول عيسى ابن مريم (عليه السلام) فإن كذبت بما ينطق به الإنجيل فقد كذّبت موسى وعيسى (عليهما السلام) ومتى أنكرت هذا الذكر وجب عليك القتل لأنّك تكون قد كفرت بربّك ونبيّك وبكتابك.

قال الجاثليق: لا أنكر ما قد بان لي في الإنجيل وإنّي لمقرّ به.

قال الرضا (عليه السلام): اشهدوا لي إقراره. ثم قال: يا جاثليق سل عما بدالك؟

قال الجاثليق: أخبرني عن حواري عيسى ابن مريم (عليه السلام) كم كان عدّتهم وعن علماء الإنجيل كم كانوا؟

قال الرضا (عليه السلام): على الخبير سقطت، أما الحواريون فكانوا اثني عشر رجلاً. يوحنا الأكبر باج ويوحنا بقرقيسيا ويوحنا الديلمي وعنده كان ذكر النبي (صلى الله عليه وآله) وذكر أهل بيته وأمّته وهو الذي بشّر أمّة عيسى وبني إسرائيل به.

ثم قال له: يا نصراني والله إنّا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد (صلى الله عليه وآله) وما ننقم على عيساكم شيئاً إلاّ ضعفه وقلّة صيامه وصلاته.

قال الجاثليق: أفسدت والله علمك وضعفت أمرك وما كنت ظننت إلاّ أنّك أعلم أهل الإسلام.

قال الرضا (عليه السلام): وكيف ذلك؟

قال الجاثليق: من قولك: إنّ عيسى كان ضعيفاً قليل الصيام قليل الصلاة، وما أفطر عيسى يوماً قط ولا نام بليل قط ومازال صائم الدهر وقائم الليل.

قال الرضا (عليه السلام): فلمن كان يصلي ويصوم. فخرس الجاثليق. قال الرضا (عليه السلام): ما أنكرت أنّ عيسى (عليه السلام) كان يحيي الموتى بإذن الله عزّ وجل؟

قال الجاثليق: أنكرت ذلك من أجل أنّ من أحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، فلم تتخذه أمّته ربّاً ولم يعبده أحد من دون الله عزّ وجل، ولقد صنع حزقيل، النبي (عليه السلام) مثل ما صنع عيسى ابن مريم فأحيا خمسة وثلاثين ألف رجل من بعد موتهم بستين سنة ثم التفت إلى رأس الجالوت، فقال له:

يا رأس الجالوت أتجد هؤلاء في شباب بني إسرائيل في التوراة اختارهم بخت نصر من سبي بني إسرائيل حين غزا إليهم فأحياهم، هذا في التوراة لا يدافعه إلاّ كافر منكم.

قال رأس الجالوت: قد سمعنا به وعرفناه قال: صدقت. ثم قال: يا يهودي خذ هذا السفر من التوراة فتلا (عليه السلام) علينا من التوراة آيات، فأقبل اليهودي يترجح لقراءته ويتعجّب ثم أقبل على النصراني فقال:

يا نصراني، أفهؤلاء كانوا قبل عيسى أم عيسى كان قبلهم؟ قال: بل كانوا قبله، فقال الرضا (عليه السلام): لقد اجتمعت قريش على رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فسألوه: أن يحيي لهم موتاهم فوّجه معهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال له: اذهب إلى الجبانة فناد بأسماء هؤلاء الرهط، الذين يسألون عنهم بأعلى صوتك: يا فلان ويا فلان يقول لكم محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوموا بإذن الله عزّ وجل، فقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، فأقبلت قريش تسألهم عن أمورهم. ثم أخبروهم أن محمداً قد بعث نبيّاً فقالوا:

وددنا أنّا أدركناه فنؤمن به. ولم نتخذه ربّاً من دون الله عزّ وجل ولم ننكر لأحد من هؤلاء فضلهم، فمتى اتخذتم عيسى ربّاً، جاز لكم أن تتخذوا اليسع وحزقيل ربّاً لأنّهما قد صنعا مثل ما صنع عيسى ابن مريم (عليه السلام) من إحياء الموتى وغيره. وإنّ قوماً من بني إسرائيل خرجوا من بلادهم من الطاعون ولم ألوف حذر الموت فأماتهم الله في ساعة واحدة، فعمد أهل تلك القرية فحظروا عليهم حظيرة، فلم يزالوا فيها حتى نخرت عظامهم وصاروا رميماً فمرّ بهم نبياً من أنبياء بني إسرائيل فتعجب منهم ومن كثرة العظام البالية فأوحى الله عزّ وجل إليه:

أتحب أن أحييهم لك، فتُنذرهم قال: نعم يا ربّ، فأوحى الله عزّ وجل إليه: أن نادهم. فناداهم فقال: أيتها العظام الباليةّ قومي بإذن الله عز وجل، فقاموا أحياء أجمعون، ينفضون التراب عن رؤوسهم. ثم إبراهيم خليل الرحمن (عليه السلام) حين أخذ الطير فقطعهن قطعاً ثم وضع على كل جبل منهن جزءاً ثم ناداهن فأقبلن سعياً إليه. ثم موسى بن عمران وأصحابه السبعون الذين اختارهم. صاروا معه إلى الجبل، فقالوا له: إنّك قد رأيت الله

سبحانه فأرناه كما رأيته فقال لهم: أنّي لم أره فقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة فاحترقوا إلى آخرهم وبقي موسى وحيداً.

فقال: يا ربّ اخترت سبعين رجلاً من بني إسرائيل فجئت بهم وأرجع وحدي فكيف يصدقني قومي بما أخبرهم به، فلو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا؟ فأحياهم الله عزّ وجل من بعد موتهم.

وكل شيء ذكرته لك من هذا لا تقدر على دفعه لأنّ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان قد نطقت به.. فإن كان كل من أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص والمجانين يتّخذ ربّاً من دون الله، فاتخذ هؤلاء كلهم أرباباً. ما تقول يا يهودى؟ فقال الجاثليق: القول قولك ولا إله إلاّ الله.

ثم التفت إلى رأس الجالوت، فقال: يا يهودي أقبل عليّ أسألك بالعشر الآيات التي أنزلت على موسى بن عمران (عليه السلام) هل تجد في التوراة مكتوباً بنبأ محمد (صلى الله عليه وآله) وأمّته، إذا جاءت الأمّة الأخيرة أتباع الجدد فليفرغ بنو إسرائيل إليهم وإلى ملكهم لتطمئن قلوبهم فإنّ بأيديهم سيوفاً ينتقمون بها من الأمم الكافرة في أقطار الأرض، أهكذا هو في التوراة مكتوب.

قال رأس الجالوت: نعم إنّا لنجده كذلك.

ثم قال للجاثليق: كيف علمك بكتاب شعيا قال: أعرفه حرفاً حرفاً.

قال لهما: أتعرفان هذا من كلامه يا قوم: أنّي رأيت صورة راكب الحمار لابساً جلابيب النور ورأيت راكب البعير مثل ضوء القمر.

فقالا: قد قال ذلك شعيا (عليه السلام) قال الرضا (عليه السلام): يا نصراني هل تعرف في الإنجيل قول عيسى (عليه السلام): إنّي ذاهب إلى ربّكم وربي، والبارقليطا، جاء هو الذي يشهد لي بالحق كما شهدت له، وهو الذي يفسّر لكم كل شيء، وهو الذي يبدأ فصائح الأمم وهو الذي يكسر عمود الكفر.

فقال الجاثليق: ما ذكرت شيئاً بالإنجيل إلاّ ونحن مقرّون به فقال: أتجد هذا ثابتاً في الأناجيل يا جاثليق: قال: نعم.

قال الرضا (عليه السلام): يا جاثليق ألا تخبرني عن الإنجيل الأول حين افتقدتموه عند من وجدتموه ومن وضع لكم هذا الإنجيل فقال له: ما افتقدنا الإنجيل إلاّ يوماً واحداً حتى وجدناه غضّاً طرياً فأخرجه إلينا يوحنا ومتى، فقال الرضا (عليه السلام): ما أقلّ معرفتك بسنن الإنجيل وعلمائه؟!

فإن كان هذا كما تزعم فلم اختلفتم في الإنجيل، وإنما وقع الاختلاف في هذا الإنجيل الذي في أياديكم اليوم فلو كان على العهد الأول لم تختلفوا فيه ولكني مفيدك علم ذلك.

اعلم أنّه لما افتقد الإنجيل اجتمعت النصارى إلى علمائهم فقالوا لهم: قتل عيسى ابن مريم (عليه السلام) وافتقدنا الإنجيل وأنتم العلماء فما عندكم فقال لهم لوقا ومرقانوس ويوحنا ومتّى إن الإنجيل في صدورنا ونحن نخرجه إليكم سفراً سفراً في كل أحد فلا تحزنوا عليه ولا تخلوا الكنائس فإنّا سنتلوه عليكم في كل أحد سفراً سفراً حتى نجمعه كلّه فقعد لوقا ومرقانوس ويوحنا ومتّى فوضعوا لكم هذه الأناجيل بعد ما افتقدتم الإنجيل الأول.

وإنّما كان هؤلاء الأربعة تلاميذ، تلاميذ الأولين أعلمت ذلك؟

فقال الجاثليق: أمّا هذا فلم أعلمه، وقد علمته الآن، وقد كان لي من فضل علمك بالإنجيل وسمعت أشياء ممّا علمته، شهد قلبي أنّها حق فاستزدت كثيراً من الفهم.

فقال له الرضا (عليه السلام): فكيف شهادة هؤلاء عندك؟ قال: جائزة، هؤلاء علماء الإنجيل، وكلما شهدوا به فهو حقّ.

قال الرضا (عليه السلام) للمأمون ومن حضره من أهل بيته وغيرهم: أشهدوا عليه، قالوا: شهدنا.

ثم قال (عليه السلام) الجاثليق: بحق الابن وأمّه هل تعلم أنّ متّى قال: إنّ المسيح هو ابن داود ابن إبراهيم بن إسحاق بن يعقوب بن يهوذا بن خضرون، فقال مرقانوس في نسبة عيسى ابن مريم (عليه السلام): أنّه كلمة الله أحلّها في الجسد الآدمي فصارت إنساناً وقال لوقا: إنّ عيسى ابن مريم وأمه كانا إنسانين من لحم ودم فدخل فيها الروح القدس.

ثم إنّك تقول من شهادة عيسى على نفسه حقّاً: أقول لكم يا معشر الحواريين إنّه لا يصعد إلى السماء إلاّ من نزل منها، إلاّ راكب البعير خاتم الأنبياء، فإنّه يصعد إلى السماء وينزل فما تقول في هذا القول؟

قال الجاثليق: هذا قول عيسى لا ننكره.

فقال الرضا (عليه السلام): فما تقول في شهادة لوقا ومرقانوس ومتّى على عيسي؟

قال الجاثليق: كذبوا على عيسى، فقال الرضا (عليه السلام): يا قوم أليس قد زكّاهم وشهد أنهم علماء الإنجيل وقولهم حق.

فقال الجاثليق: يا عالم المسلمين أحب أن تعفيني من أمر هؤلاء، قال الرضا (عليه السلام): فإنّا قد فعلنا، سل يا نصراني عمّا بدا لك.

قال الجاثليق: ليسألك غيري فلا وحق المسيح ما ظننت أنّ في علماء المسلمين مثلك.

ثم تنحى الجاثليق وبدأ الإمام جولة جديدة من المناظرة مع بقية العلماء فأفحمهم جميعاً حتى اندهش المأمون من معلومات الإمام وسعة أفقه وبيان حديثه وعظيم حجته. وبهذه المناظرة ذاع صيت الإمام أكثر فأكثر بأنّه هو العالم الروحاني الذي يجب أن يحل محلّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمّا غيره من الملوك فلا تليق بهم هذه الكرسي إلى ما هنالك من كلام حول هذا الموضوع، فندم المأمون على عقد هذه المناظرة ندماً شديداً وبذلك صدقت نبوءة الإمام (عليه السلام) في حقّه بأنّه سيندم حينما يسمع الإمام يستدل على جميع الكتب السماوية ويفحم أربابها.

لقد كان ظنّ المأمون أن يحطّ من قدره ولكن الله رفع قدر الإمام بهذه المناظرة وأمثالها.

هذا قسم من هذه المناظرة الكبيرة ومن أراد التفاصيل فعليه بمراجعة البحار أو عيون أخبار الرضا فإنّه يجدها كاملة وقد اختصرت هذا القسم منها رحمة بالقارئ الذي لا يملك وقتاً طويلاً.

الإمام يخرج لصلاة العيد

لم يخرج إمام من أئمتنا لصلاة العيد بعد الإمام أمير المؤمنين نتيجة لظروف سياسية قاسية، ولذلك لم يصدر عنهم تعاليم واضحة في كيفية الخروج لصلاة العيد حتى إذا أخذ الرضا ولاية العهد.

وتهيأ الجو السياسي ومهما كان التعليل بأن المأمون كان موعوكاً أو مشغولاً أو ما إلى ذلك.

فقد طلب من الإمام أن يخرج فيصلّي بالناس فامتنع الإمام أشدّ امتناع لأنّه عند دخوله في ولاية العهد شرط أن لا يدخل في شيء من أمور الدولة وبما أن صلاة العيد فيها جانب سياسي رفض أن يكون له شيء منها وطلب من المأمون أن يفي له بالشروط فقال المأمون: إنّما أريد بذلك أن تطمئن قلوب الناس ويعرفوا فضلك.

ولم تزل الرسل تتردد بينهما في ذلك، فلما ألحّ عليه المأمون أرسل إليه: إن أعفيتني فهو أحبّ إليّ وإن لم تعفني أخرج كما خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين، فقال له المأمون: أخرج كيف شئت.

ولم يدر في خلد المأمون أنّ الدنيا ستتجاوب مع هذه الصلاة فأمر القوّاد والحجّاب والناس أن يبكّروا إلى باب الرضا (عليه السلام).

فقال: فقعد الناس لأبي الحسن الرضا في الطرقات والسطوح واجتمع النساء والصبيان ينتظرون خروجه، وصار جميع القوّاد والجند إلى بابه، فوقفوا على دوابهم حتى طلعت الشمس فاغتسل أبو الحسن ولبس ثيابه وتعمّم بعمامة بيضاء من قطن وألقى طرفاً منها على صدره وطرفاً منها بين كتفيه ومسّ شيئاً من الطيب وأخذ بيده عكازه.

وقال لمواليه: افعلوا مثلما فعلته.

فخرجوا بين يديه وهو حاف قد شمّر سراويله إلى نصف الساق وعليه ثياب مشمّرة فمشى قليلاً ورفع رأسه إلى السماء وكبّر وكبّر مواليه معه ثم مشى حتى وقف على الباب، فلما رآه القوّاد والجند على تلك الصورة سقطوا كلهم عن الدواب إلى الأرض، وكان أحسنهم حالاً من كان معه سكين قطع به شرآبة جاجيلته (وهي من النعل تتخذ من الجلد) ونزعها وتحفى وكبر الرضا على الباب وكبّر الناس معه فخيّل إلينا أنّ السماء والحيطان تجاوبه وتزعزت (مرو) بالبكاء والضجيج لما رأوا أبا الحسن وسمعوا تكبيره.

إرجاع الإمام

وبلغ المأمون ذلك. فقال له الفضل بن سهل ذو الرئاستين يا أمير المؤمنين إن بلغ الرضا المصلّى على هذا السبيل أفتتن به الناس، وخفنا كلّنا على دمائنا فأنفذ إليه أن يرجع.

فأنفذ المأمون إليه: قد كلفناك شططاً، وأتعبناك، ولسنا نحب أن تلحقك مشقة، فارجع، وليصل بالناس من كان يصلّي بهم على رسمه.

فدعا أبو الحسن بخفه فلبسه (عليه السلام) وركب ورجع واختلف أمر الناس في ذلك اليوم ولم تنتظم صلاتهم (54).

الإمام في رحاب الله

بعد أن علا نجم الإمام في سماء العاصمة الإسلامية وبان للناس من خلال المناظرات والمحاورات أنّ هذا الرجل هو الجدير بالمركز النبوي العظيم وأنّ غيره معتد وغاصب لحقّه.

كانت كل هذه الشائعات تصل للمأمون فيغصّ في ريقه ويقضّ مضجعه وهو إنّما جاء بالإمام ليضيّق عليه الخناق ويمنع ذكره من الانتشار وإذا به كالطيب كيف وضعته تضوّع ريحه.

لهذا فكر هو وجلاوزته الذين يعصون الله في إطاعة مخلوق كيف يتخلّصون من الإمام وهو ولي العهد. هل يقتلونه عمداً جهاراً فلا يستطيعون، فدبروا له حيلة الحمام التي قتل فيها ذو الرئاستين فلم يذهب الإلحاح المتزايد من المأمون.

لقد ضاق المأمون ذرعاً به لأنّه يريد أن يذهب إلى بغداد ويضمن للعباسيين بقاء حكمهم فكيف يضمن لهم والرضا حي يرزق؟ إذاً ما الحيلة في ذلك؟

وتضافرت الروايات في الكيفية التي ارتكبها المأمون في قتل الإمام الرضا (عليه السلام) فعن أبي الفرج والمفيد أنّه قتله بعصير الرمان والعنب المسمومين.

فقد ذكر المفيد في الإرشاد عن عبد الله بن بشير أنّه قال:

أمرني المأمون أن أطوّل أظفاري على العادة ولا أظهر ذلك لأحد، ففعلت ثم استدعاني فأخرج لي شيئاً يشبه التمر الهندي.

فقال لي: اعجن هذا بيديك جميعاً.

ففعلت.. ثم قام وتركني ودخل على الرضا وقال له ما خبرك؟

قال: أرجو أن أكون صالحاً.

قال أنا بحمد الله أيضاً صالح فهل جاءك أحد من المترفقين في هذا اليوم.

قال: لا.

فغضب المأمون وصاح على غلمانه، ثم قال: فخذ ماء الرمان الساعة فإنّه ممّا لا يستغنى عنه.

ثم دعاني فقال: ائتنا برمان فأتيته به.

فقال لي: أعصر بيديك.

ففعلت، وسقا المأمون الرضا بيده. وكان ذلك سبب وفاته فلم يلبث إلاّ يومين حتى مات.

وذكر عن أبي الصلت الهروي أنّه قال: دخلت على الرضا وقد خرج المأمون من عنده.

فقال لي: يا أبا الصلت قد فعلوها، وجعل يوحّد الله ويمجّده. وروي عن محمد بن الجهم أنّه قال: كان الرضا يعجبه العنب فأخذ له شيء فجعل في موضع أقماعه الإبر أياماً ثم نزع وجيء به إليه فأكل منه وهو في علّته التي ذكرنا فقتله وذكر إن ذلك كان من لطيف السموم.

وعلى أية كيفية كان قتل الإمام فإنّ الذي يرجّح بنظرنا من ملاحظة النصوص والفهم للتاريخ وللظروف السياسية آنذاك أنّ المأمون هو الذي اغتال الإمام بالسمّ دون أن يخامرنا بذلك أي شكّ أو ريبة.

وكانت وفاته بطوس في قرية يقال لها (سناباد) من رستاق تونان ودفن في دار حميد بن قحطبة في القبة التي فيها هارون الرشيد إلى جانبه ممّا يلي القبلة. ولما توفي الرضا لم يظهر المأمون موته في وقته وتركه يوماً وليلة ثم وجّه إلى محمد بن جعفر بن محمد وجماعة من آل أبي طالب فلما أحضرهم وأراهم إيّاه صحيح الجسد لا أثر فيه بكى.

وقال: عزّ عليّ يا أخي أن أراك في هذه الحالة وقد كنت آمل أن أقدم قبلك فأبى الله إلاّ ما أراد وأظهر جزعاً شديداً وحزناً كثيراً وخرج مع جنازته يحملها حتى الموضع الذي هو مدفون فيه الآن (55).

هوى البدر من عليائه

لقد هوى البدر من عليائه وأظلم الأفق ولبست الدنيا ثوب حداد حيث فقدت أعظم شخصية عرفتها علماً وعملاً وزهداً وورعاً.

فأنّى لهذه الدنيا أن تعتز بعد اليوم بمن يمشي عليها متواضعاً خائفاً من ربّه مفكّراً في أمره مهتماً بالفقراء من عباده؟!

وأين للفقراء بعد اليوم من يواسيهم ويحنو عليهم ويضمد جراحهم ويعطف على أبنائهم؟!

وأين للجهال اليوم وبعد اليوم من أستاذ ينير الدنيا أمامهم ويفتح طريقاً رحباً في عالم المجهول؟!

وأين للعلماء من ذلك الربّاني العظيم الذي يجتمعون حوله فيغرفون من روحانيته وعلومه ممّا يجعلهم قادة عند الأمم! وأين للفضائل والشمائل الكريمة ومن يتصف بها وتليق له ويليق لها!! هيهات لقد مات كل شيء بعد وفاته حتى كأنّ الدنيا ونضارتها ذهبت ولم يبق من ربيعها المرع وجنانها الخضراء إلاّ نتف من الهشيم اختبأت في زاوية من الزوايا هرباً من الرياح الهوج ففي ذمّة الله أيها القمر المنير، يا من أضأت العالم بنورك الوقّاد وسناك المتوهّج وغمرت العالمين بعطائك الكبير. فسلام على هذه الروح الطيبة المعطاء وسلام على الروض السخي وسلام عليك أيها الإمام العظيم يوم ولدت ويوم استشهدت ويوم تبعث حيّاً.

مراثي الإمام

أي قلب لا ينفجر لذكر مصاب جلل وأي طرف لا يذرف دمعه سخياً لدي سماع هذا النبأ الأليم؟!

وأي إنسان لا يتصدع قلباً وقالباً عندما يعلم أنّ شم الجبال قد خرّت وشمس العلم قد كسفت؟!

فكيف بمن جاهد في حب أهل بيت نبيّه مدّة أربعين عاماً وهو يحمل خشبته على كتفه ليجد من يصلبه عليها؟

كيف لا ينفطر قلب هذا الشاعر وهو يتتبع مآسي آل محمد فيذوب لها ويتمزّق مزقاً من أجلها فكيف لا يتمزّق الآن وبالأمس القريب جاء إلى خراسان يقرأ قصيدته التائية التي لم يعرف أشهر ولا أحسن منها في تاريخ الرثاء على كثرة من رثى أهل البيت من الشعراء وقد أخذ جائزة الإمام وأي جائزة قميص الإمام ليكون كفناً له ينفعه في قبره ويوم حشره؟

فهل لدموعه أن تجف أو قلبه أن يتحجّر أو إنّه سوف يزداد مزقاً ويغتسل بدموعه؟

ولا شك أنّ عاطفة هذا الإنسان الفريدة من نوعها جعلته يعيش حالة لا شعورية فيقدم على رثاء من أفجع الرثاء وينحر الحاكم الظالم بسكين من شعرة ويعرّض نفسه وحياته ودمه للسفح.

دعبل والمأمون

جاء في (أمالي الشيخ: ج 1 ص98 - 99) و(أمالي المفيد 201/200) و(الأغاني) و(الغدير) و(أخبار شعراء الشيعة: 94 - 95).

عن يحيي بن أكثم قال: كان المأمون أقدم دعبل (رحمه الله) وأمّنه على نفسه فلما مثل بين يديه، وكنت جالساً بين يدي المأمون فقال له أنشدني قصيدتك الرائية. فجحدها دعبل وأنكر معرفتها. فقال له: لك الأمان عليها كما أمنتك على نفسك، فأنشده:

تأســـفت جـــارتي لما رأت زوري***وعـــدت الحـــلم ذنباً غير مغتفر

ترجو الصبا بـــعد ما شابت ذوائبها***وقد جـــــرت طلـقاً في حلبة الكبر

أجارتي إن شـــــيب الرأس يعلمني***ذكر المعـــــاد وأرضاني عن القدر

لو كنت أركن للدنـــــيا وزيـــــنتها***إذن بكيت على الماضين من مضر

أخنى الزمان على أهلي فصدعـــهم***تصدع الشعب لا في صدمة الحجر

بعض أقام وبعض قد أصـــــار به***داعي المنـــية والـباقي على الأثر

أما المقـيم فأخـــشى أن يـــفارقني***وليست أوبة مـــــن ولـــى بمنتظر

أصبحت أخبر عن أهلي وعن ولدي***كحاكم قـــص رؤيـــا بعد مدّكر

لولا تشـــاغل عيـــني بالألى سلفوا***من آل بـــيت رســـــول الله لم أقر

وفي موالـــيك للمخـــزون مشغلة***من أن تبـــيت لمـــشغول على أثر
كم من رباع لـــهم بالـــطف بائنةٍ***وعارض بصـــعيد الـــترب منعفر
أنسى الحســين وســـراهم لمقتله***وهم يقولـــون هـــذا سيد البشر
يا أمة الســوء ما جازيت أحمد عن***حسن البـــلاء على التنزيل والسور
خلفتموه علـــى الأبناء حين مضى***خلافة الذئـــب فـــي أبقار ذي بقر

قال يحيى وانفذني المأمون في حاجة فقمت فعدت إليه وقد انتهى إلى قوله:
لم يبـــق حـــي من الأحياء نعلمه***من ذي يمـــان ولا بـكر ولا مضر
إلاّ وهم شركـــاء فـــي دمائهم***كما تشـــارك أيـــسار على جزر
قتل وأســـــر وتشـــريد ومنهبة***فعل الغـــزاة بـأهل الروم والخزر
أرى أمـــية معـــذورين إن قتلوا***ولا أرى لبني العبـــاس مـــن عذر
قوم قتلـــتم علـــى الإسلام أولهم***حتى إذا استمكنوا جازوا على الكفر
أبناء حـــرب ومـــروان وأسرتهم***بنو معيط ولاة الحـــقد والـــوغر
أربع بطـــوس على قبر الزكي بها***إن كنت تربـــع من دين على وطر
قبران في طـــوس خير الناس كلهم***وقبر شرهـــم هـــذا من العبر
ما ينفع الرجس من قبر الزكي ولا***على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امـــرئ رهن بما كسبت***له يداه فخـــذ مـــن ذاك أو فذر

قال: فضرب المأمون بعمامته الأرض، وقال: صدقت والله يا دعبل!!

وهناك كثير من المراثي اقتصرنا على ذكر هذه المرثية العصماء حفاظاً على وقت القارئ.

والحمد لله أولاً وآخراً وعلى ما أنعم علينا من الكتابة في هذا الموضوع الجليل وشكراً لأخي السيد عبد الودود على إلحاحه المتزايد الذي حملني مسؤولية إخراج هذا الكتاب.

وشكراً لكل الزملاء الذين شاركوني الرأي وشكراً لكل أخ مخلص يقرأ الكتاب وبروح بناءة فيبين لنا ما نحتاجه وما يحتاجه الجيل ونحن نقبل هذه التوجيهات بكل رحابة صدر وطلاقة وجه.

والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآل المجاهدين المعصومين.

عفيف النابلسي

البيسارية - جبل عامل

المحتويات

كلمة الناشر
الإمام الرضا (عليه السلام) عرض وتحليل
هذا الكتاب
إهداء
مولد النور
موئل المجد

مدرسة العصمة
مواريث الأنبياء (والنص على الإمام بعينه)
بعض من النصوص العامة
محاولات مخلصة
نوايا غير مخلصة
1- السلوك القدوة
2- السلوك القدوة
سلوكه في مظهره
3- السلوك القدوة
حلم الإمام الرضا وتسامحه
4- السلوك القدوة
كرم الإمام وبرّه
5- السلوك القدوة
التربية الهادفة والصارمة
الأدب الرضوي
الإمام والواقفة
الإمام يضيق الخناق على الواقفة
يكاد المريب أن يقول خذوني
الإمام موسى (عليه السلام) يحذّر الواقفة
الدوافع المادية للواقفة
الإمام الرضا يكشف دوافع الوقف
أحد أقطاب الوقف يعترف
شيوع شبهة الوقف وخطورتها
تخبط بعض عناصر الواقفة
الإمام الرضا (عليه السلام) يتجرع المحن
الموقف السلبي من الظلمة
موقف السلطات الجائرة من الإمام
محاولات للقضاء على الإمام
ولاية العهد
ثورات العلويين وغيرهم
ظروف البيعة وأسبابها
الإمام في طريقه إلى خراسان
حديث السلسلة الذهبية
أهداف المأمون من البيعة

مبررات قبول الإمام لولاية العهد
سؤال وجواب
المفاوضات الفاشلة
نصوص تاريخية
قبول ولاية العهد بعد التهديد
بعض ما يدلّ على عدم قبول ولاية العهد
الشروط السلبية مع الحكم
اليوم المشهود
أبو نواس يمدح الإمام (عليه السلام)
دعبل عند الإمام الرضا (عليه السلام)
قصة طريفة
جانب من مناظرات الإمام (عليه السلام)
الدعوة إلى المناظرة
الإمام يخرج لصلاة العيد
إرجاع الإمام
الإمام في رحاب الله
هوى البدر من عليائه
مراثي الإمام
دعبل والمأمون
المحتويات

الهوامش:

1- كشف الغمة ج 3 ص 104.
2- الإرشاد ص 308.
3- عيون أخبار الرضا ج 2 ص 180 - 183.
4- البحار ج 49 ص 211 نقلاً عن كتاب الإمام الرضا لمحمد جواد فضل الله.
5- البحار ص 100.
6- الإرشاد للمفيد ص 311.
7- عيون أخبار الرضا ح 1 ص 204.
8- ابن الأثير ح 5 ص 183.
9- عيون أخبار الرضا ج 1 ص 59.
10- عيون أخبار الرضا ج 1 ص 64.
11- نفس المصدر السابق.

12- نقلاً عن كتاب حياة الأئمة للسيد هاشم معروف ج 2 ص 366.

13- نفس المصدر السابق.

14- كل ما ذكرنا من الروايات الخاصة مصدرها تاريخ الأئمة الاثني عشر للسيد هاشم معروف الحسيني ج 2 في فصل النص علي إمامته.

15- الكافي ج 1 ص 487.

16- عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ج 2 ص 184.

17- الكافي.

18- عيون أخبار الرضا ج 2 ص 226.

19- عيون أخبار الرضا ج 2 ص 226.

20- عيون أخبار الرضا ج 2 ص 226.

21- الإمام الرضا محمد جواد فضل ص 46.

22- عيون أخبار الرضا ج 2 ص 237.

23- كشف الغمة ج 3 ص 103.

24- الكافي ج 6 ص 516.

25- عيون أخبار الرضا ج 2 ص 178.

26- الكافي ج 1 ص 316 - 319.

27- الإمام الرضا محمد جواد فضل الله ص 52.

28- كشف الغمة ج 3 ص 143.

29- الكافي ح 3 ص 502.

30- المناقب ح 2 ص 361.

31- نفس المصدر ص 360.

32- عيون أخبار الرضا ج 2 ص 264.

33- نفس المصدر ص 8.

34- الكافي ج 5 ص 288.

35- الغيبة للشيخ الطوسي ص 29.

36- عيون أخبار الرضا ج 1 ص 28.

37- نفس المصدر ص 28.

38- الكافي ج 1 ص 381.

39- رجال الكشي ص 398.

40- تفسير العياشي.

41- سورة إبراهيم: 27.

42- عيون أخبار الرضا ج 1 ص 32.

43- عيون أخبار الرضا ج 1 ص 113.

44- قرب الإسناد ص 206.

45- الإمام الرضا محمد جواد فضل الله 76.
46- الغيبة للشيخ الطوسي.
47- رجال الكشي.
48- حياة الإمام الرضا جعفر مرتضي ص 192 - 193.
49- هذه الأهداف الثمانية أخذت من حياة الإمام الرضا لجعفر مرتضى.
50- حياة الإمام الرضا جعفر مرتضى.
51- مقاتل الطالبين ص 562.
52- مناقب آل أبي طالب أمالي الصدوق وعيون أخبار الرضا وعلل الشرائع والبحار ومسند أحمد وروضة الواعظين وغيرها من تحدّث عن ولاية العهد.
53- الإرشاد للمفيد ص 291.
54- الإرشاد ص 313.
55- مقاتل الطالبيين ص 378.

فهرست الكتاب

كلمة الناشر
إهداء
مولد النور
مواريث الأنبياء (والنص على الإمام بعينه)
الأدب الرضوي
الإمام والواقفة
الإمام الرضا (ع) يتجرع المحن
الموقف السلبي من الظلمة
موقف السلطات الجائرة من الإمام
محاولات للقضاء على الإمام
ولاية العهد
ثورات العلويين وغيرهم
ظروف البيعة وأسبابها
الإمام في طريقه إلى خراسان
حديث السلسلة الذهبية
أهداف المأمون من البيعة
اليوم المشهود
أبو نواس يمدح الإمام (ع)

دعبل عند الإمام الرضا (ع)

جانب من مناظرات الإمام (ع)

الإمام يخرج لصلاة العيد

الإمام في رحاب الله